د. رمسيس عوض

من أوراق الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش فى إسپانيا

مكتبة الشروق الدولية

من أوراق الحروب الصليبية

ومحاكم التفتيش فى إسپانيا

الطبعة الأولى لمكتبة الشروق الدولية

١٤٣٣هـ ـ أغسطس ٢٠١٢م



٢٢ شارع الأندلس ـ مصر الجديدة ـ خلف حديقة مارى لاند

تليفون وفاكس : ٢٢٥٦٦٣٧٥ ـ ٢٢٥٦٦٤٣٥

٠١٠١٦٣٣٧١٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

http://shoroukintl.com

د. رمسيس عوض

من أوراق الحروب الصليبية
ومحاكم التفتيش فى إسپانيا



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

عوض، رمسيس.
من أوراق الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش فى إسپانيا/ رمسيس عوض.
ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٢م.
١١٩ص؛ ١٧×٢٤سم.
تدمك 978-977-701-086-3
١ ـ الحروب الصليبية.
٢ ـ محاكم التفتيش.
أ ـ العنوان. ٩٥٣,٠٧٣٩٣

رقم الإيداع **٢٠١٢/١١٥٨٢م**
الترقيم الدولى **I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 086 - 3**

صور الغلاف والصور الداخلية مأخوذة من مكتبة الكونجرس

الفهـــــرس

الموضوع **الصفحة**

مقدمة الناشر ٧

البــداية ١١

الفصل الأول: الملك فرديناند والملكة إيزابيلا واليهود ٢٩

الفصل الثانى: الراهب توركويمادا والمكتب المقدس ٥٩
- الـمكتب الـمُقدس ٦٦
- الذراع العلمانية والعمل الإيمانى ٦٩

الفصل الثالث: محاكم التفتيش بين العداوة لليهود والعداوة للمسلمين ٧٣
- قضية لاجارديا الغامضة: سفك دم الأطفال المسيحيين ٧٥
- الحرب على المسلمين ٨٢

الفصل الرابع: ظاهرتان لافتاتان ٩١
- المعارضة ضد محاكم التفتيش الإسپانية ٩٣
- مناعة إسپانيا ضد المذهب الپروتستانتى وحركة الإصلاح الدينى ١٠٤

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف ١١٦

مقدمة الناشر

استمرت محاكم التفتيش من القرن الثالث عشر إلى التاسع عشر فى أوروپا، فى إيطاليا وفرنسا وإسپانيا بصفة أساسية، وامتدت إلى العالم الجديد، أمريكا الجنوبية.

وهى ـ كما يظهر من اسمها ـ تفتش عن عقائد المسيحيين، فإذا خالفت ما تراه الكنيسة الكاثوليكية عقيدة صحيحة، كان جزاء ذلك المخالف، أو الهرطيق، الحرق على الخشبة.

كم هو عدد المحروقين على الخشبة؟

ليس هناك تعداد دقيق، وهذا بديهى لمحاكمات وحملات صليبية استمرت عدة قرون، فى أماكن متعددة من أوروپا والعالم الجديد.

فموسوعة بريتانيكا، على سبيل المثال، لم تعط احصاءً عامًّا، ولكن تقول إن «توركويمادا» المحقق الإسپانى الشهير قد أصدر وحده أحكامًا بحرق ٢٠٠٠ مهرطق.

وقد قرأنا من قبل فى الحملة الصليبية على جنوب فرنسا ما قيل عن قتلها عشرين ألفًا من سكان مدينة بيزييه، وأن الله سوف يفرز مَن مِن القتلى كان صالحًا ومن كان مهرطقًا.

يقدر بعض المؤرخين الپروتستانت عدد قتلى المحاكم بـ: عشرين مليون ضحية[١]، وهناك من قال بأكثر من ذلك.

بينما قال ڤولتير فى كتابه: «God & Human Beings» إن إجمالى ضحايا محاكم التفتيش يقارب المليون، منهم ٣٠٠,٠٠٠ قتيل بسبب خلاف لاهوتى على كلمة «consubstantial» والتى تعنى «من نفس المادة أو الجوهر»، والكلام حول المسيح وأنه من نفس «مادة أو جوهر الله».

(١) انظر: «Answering Fundamentals» Albert S. Nevins - Our Sunday Visiting Publishing Division, 1990, صفحات ١١٧ ـ ١٢٤.

ويضيف ڤولتير إن الحروب الدينية المسيحية بين البروتستانت والكاثوليك فى أوروبا أسالت دماء مليونين من المسيحيين.

وجمع ڤولتير عدد المقتولين باسم المسيح ولأسباب متنوعة، فبلغ ٩,٤٦٨,٨٠٠ ضحية[٢].

بل ويذهب ڤولتير فى كتابه المذكور إلى أن من يقتدى بالمسيح بطريقة صحيحة تعتبره الكنيسة الكاثوليكة مهرطقًا يستحق الحرق على الخشبة ـ صفحة ١٦٣.

وتلك فى الحقيقة مشكلة تظهر من نص فى الإنجيل يقول فيه المسيح: «زوال السماء والأرض أسهل من سقوط نقطة واحدة من الشريعة» ـ لوقا: ١٦ : ١٧، بينما أرسل بولس إلى مؤمنى غلاطية «يحررهم من الشريعة»، مثل قوله: «يا من تريدون التبرير عن طريق الشريعة، قد حُرمتم المسيح وسقطتم من النعمة» ـ ٥ : ٤.

وفى كتابنا الحالى، سيجد القارئ أن من أسباب الاتهام بالهرطقة عدم أكل الخنزير، أو عدم إيقاد نار فى يوم السبت... وأمثال ذلك، بينما فى كتاب «The Spanish Inquistion» يجد القارئ إرشادات للمحققين الذين يبحثون فى صحة مسيحية المتحولين من اليهودية أو الإسلام، مثل طريقة الاستحمام، والدفن، والأكل، وما إلى ذلك.

ولكن ما هى العقيدة المسيحية التى من يخرج منها يصبح مهرطقًا؟ وكيف تم التوصل إليها؟

تراكمت العقيدة المسيحية على مدار عدة قرون، وشكلتها أقوال آباء الكنيسة القدامى، ومجامع مسكونية (عالمية) متعاقبة، غيرت وأضافت وحذفت، وحرَّمت وقننت، وخالف بعضها البعض، حتى وصلت للصيغة الآتية بعد مجمعى نيقيا والقسطنطينية (٣٢٥ ـ ٣٨١):

We believe in one God, the Father, the Almighty, maker of heaven and earth and of all that is seen and unseen.

We believe in one Lord, Jesus Christ, the only Son of God, eternally begotten of the Father, God from God, Light from Light, true God from true God, begotten, not made, one in Being with the Father.

Through him all things were made.

For us men and for our salvation he came down from heaven: by the power of the Holy Spirit he was born of the Virgin Mary, and became man.

For our sake he was crucified under Pontius Pilate; he suffered, died, and was buried.

---

(٢) الناشر: Prometheus Books، طبعة ٢٠١٠، صفحات ١٤٣ ـ ١٤٨.

On the third day he rose again in fulfillment of the Scriptures; he ascended into heaven and is seated at the right hand of the Father.

He will come again in glory to judge the living and the dead, and his kingdom will have no end.

We believe in the Holy Spirit, the Lord, the giver of life, who proceeds from the Father and the Son.

With the Father and the Son he is worshiped and glorified.

He has spoken through the Prophets.

We believe in one, holy, Catholic, and apostolic church.

We acknowledge one baptism for the forgiveness of sins.

We look for the resurrection of the dead, and the life of the world to come. Amen.

وعلى سبيل المثال، فمارتن لوثر، ومن تبعه من البروتستانت هراطقة، كذلك نظرت كل من الكاثوليكية والبروتستانتية إلى الأرثوذكس الذين يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح على أنهم هراطقة[٣]، ولقد أحرقت الكنيسة الكاثوليكية ما أستطاعت حرقه من الهراطقة.

يتعرض الكتاب لأهوال الاتهام والتحقيق فى تلك المحاكم، وعواقبها التى تشمل الحرق على الخشبة، وفى بعض الأحيان نبش قبور الموتى ومحاكمتهم، ثم حرق جثثهم إذا ثبتت هرطقتهم، إلى مصادرة الأراضى والممتلكات... إلى غير ذلك...

وقد أطلقت الكنيسة على تلك المحاكمات، بمواكبها المهيبة ونتائجها المفجعة: عملًا إيمانيًّا.

(٣) انظر موسوعة بريتانيكا طبعة ٢٠٠٦ تحت عنوان: «Monophysite heresy» صفحة ١٢٨٤.

البداية

كان البابا إينوسنت الثالث الذى ترأس الكنيسة الكاثوليكية فى القرن الثانى عشر (١١٩٨ ـ ١٢١٦)، والذى أمر باضطهاد كل مسيحى يشتبه فى هرطقته، أول من استحدث نظام محاكم التفتيش. ولكن هذا النظام لم يعرف طريقه إلى الرسوخ والاستقرار إلا فى عهد البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ ـ ١٢٤١)، والجدير بالذكر أن المهرطقين نادرًا ما كانوا يُحرقون أحياءً حتى الموت قبل القرن الثانى عشر، فقد اكتفت الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك الوقت بمصادرة ممتلكاتهم وأموالهم.

ويذكر لنا المؤرخ «وينزلى» فى كتابه: «تاريخ الكنيسة فى القرون الوسطى من عام ٥٩٠ حتى عام ١٥٠٠» بعض أحداث حرق المهرطقين التى تعد على الأصابع، مثل ذلك المهرطق الكاثارى (انظر كتابى: «الهرطقة فى الغرب»)، الذى وضع عام ١٠٧٥ فى حظيرة مواشى ثم أضرمت فيها النيران، وأيضًا وقعت حادثة إحراق أخرى عام ١١١٤ عندما قام الغوغاء الغاضبون بالهجوم على مهرطقين داخل سجنهم وإحراقهم أحياء، ولكن الكنيسة الكاثوليكية لم تشجع على اتباع هذه السياسة مع المهرطقين إلا بعد أن أدركت مدى ما تمثل الهرطقة من خطر داهم عليها. والذى لا شك فيه أن آباء الكنيسة العظام أمثال القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠)، وتوماس الأكوينى (١٢٢٥ تقريبًا ـ ١٢٧٤)، هم الذين مهدوا لظهور محاكم التفتيش بشكل أو بآخر، فقد آمن القديس أوغسطين بضرورة موتهم حتى لا يصبحوا خطرًا يهدد المؤمنين.

وفى القرن الثانى عشر انتشرت فى فرنسا صنوف وأنواع مختلفة من الهرطقات، مثل المانية (نسبة إلى مانى الفارسى)، والوالدنيسية (نسبة إلى مؤسسها پيترو ڤالديسپى عام ١١٧٠)، الأمر الذى أزعج الكرسى البابوى إزعاجًا شديدًا. ولكن الهرطقة فى شمال فرنسا لم تكن بالضراوة التى كانت عليها فى جنوبها.

وفى الشمال كان الراهب أبيلارد الشهير بعشقه لألويزا من أبرز المهرطقين، فتصدى له القديس برنارد رئيس دير كليرڤو بنفسه. ورغم هرطقة أبيلارد فإن الكنيسة الكاثوليكية لم تفكر فى التنكيل به، بل إن بطرس المبجل رئيس دير كلونى أبقاه فى ديره وأحسن معاملته حتى وفاته عام ١١٤٢.

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية فى شمال فرنسا استطاعت أن تنتصر على هرطقة أبيلارد، فإنها عجزت فى جنوبها عن التصدى للهرطقات المختلفة التى انتشرت انتشار النار فى الهشيم، ولعل أحد الأسباب التى أدت إلى انتشارها فى جنوب فرنسا يرجع إلى قربه من آسيا والعالم الإسلامى، ومن ثم إدراكه بوجود معتقدات دينية تختلف اختلافًا جوهريًّا عن الديانة المسيحية. وعبثًا حاول القديس برنارد أن يرد المهرطقين فى الجنوب إلى صوابهم، فقد رفضوا الإنصات إليه وأشاحوا بوجوههم عنه. وفى عام ١١٦٥ اجتمع مجمع لومبار فى أسقفية ألبى، وأصدر فتواه بإدانة المهرطقين فى جنوب فرنسا، سواء كانوا من الغنوصيين أو الكاثاريين، أو أتباع أريوس، أومانى، وأطلق عليهم جميعًا اسم الألبيجنسيين (نسبة إلى ألبى التى شاهدت انعقاد المجمع المشار إليه). ومما ساعد على انتشار هذه الهرطقات فى الجنوب الفرنسى أن كثيرًا من حكامه (مثل ريموند الخامس حاكم تولوز) أظهروا تعاطفًا ملحوظًا معها.

وفى عام ١١٩٨ تم اختيار بابا جديد هو إينوسنت الثالث الآنف الذكر الذى عقد العزم على استئصال شأفة الهرطقة من القارة الأوروبية بأسرها. وبعث هذا البابا برسله إلى فرنسا المهرطقة بغية هدايتها، ولكنهم باءوا بالفشل الذريع وأصيبوا بالإحباط الشديد، وعلى رأسهم المندوب البابوى پيتر دى كاستلنو. وكان يجوب ربوع فرنسا آنذاك كاهنان إسپانيان هما دييجو دازيفيدو أسقف أوسما، ومساعده الأرستقراطى الإسپانى دومينجو دى جوزمان، الذى راجت شهرته فى العالمين وأصبح فيما بعد القديس دومينيك (١١٧٠ ـ ١٢٢١) مؤسس طائفة الرهبان الدومينيكان الذين سيطروا سيطرة كاملة على محاكم التفتيش. وذهب الكاهنان الإسپانيان إلى أن رسل البابا كانوا سينجحون فى مهمة استئصال شأفة الهرطقة فى جنوب فرنسا لو أنهم اختلطوا بالشعب كأناس عاديين يتوخون البساطة فى ملبسهم ويسيرون كخلق الله على أقدامهم وليس فى مواكب العظمة والأبهة. وهى فكرة راقت فى عين دومينجو فكرس لها كل حياته كى يضعها موضع التنفيذ. وفى الجنوب الفرنسى سعى كل من هذين الراهبين اللذين اختارا لنفسيهما بساطة الملبس وشظف العيش إلى هداية المهرطقين الألبيجنسيين سواء السبيل، ولكن محاولتهما باءت بالفشل الذريع.

ولاحظت الكنيسة الكاثوليكية أن الحاكم ريموند السادس لا يبغى إنزال العقاب بالمهرطقين أو الزج بهم فى السجون وتعذيبهم، الأمر الذى أثار غضبها فطلبت من البابا طرده من الكنيسة،

وبالفعل استجاب البابا لطلب مندوبه پيتر دى كاستلنو بفرض الحرمان الكنسى(*) على ريموند السادس. ولم يكتف البابا بطرد ريموند من الكنيسة، بل هدده بالويل والثبور وعظائم الأمور، فارتعدت فرائصه ووعد البابا بالخضوع والامتثال لأوامره، ولكن سرعان ما حنث بالوعد الذى قطعه على نفسه أمام الكنيسة، الأمر الذى زاد حنق ممثل البابا كاستلنو أكثر فأكثر فقرر العودة إلى روما ليؤكد لقداسة البابا أن السبيل الوحيد هو تأديب هذا المارق بالنار وحد السيف. وفى يناير ١٢٠٨ استعد كاستلنو على رأس وفد من مفوضى الكرسى البابوى للسفر إلى روما، وحل المساء على المسافرين فقرروا المبيت فى حانة على ضفاف نهر الرون. وفى الصباح الباكر فيما هم يغادرون الحانة إذ بشخص يقترب منهم ليغمد سيفه فى جسد پيتر كاستلنو ويرديه قتيلًا، وكان مقتل كاستلنو سببًا فى الكارثة التى حلت بطائفة الألبيجنسيين المهرطقة؛ إذ لم يكن من الممكن أن يسكت البابا على هذا التحدى السافر لكنيسته الكاثوليكية، ومن ثم حشد كل الجهود للتصدى لهذا التمرد الصارخ وصب جام غضبه على ريموند السادس حاكم تولوز واعتبره مسئولًا عما حدث. ومما زاد من حفيظة البابا ضد ريموند السادس أن حادثًا مماثلًا سبق أن وقع فى إنجلترا عام ١١٧٠ (أى قبل مقتل كاستلنو بثلاثين عامًا)، فقد اختلف الشهيد المعروف توماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربرى فى الرأى مع الملك هنرى الثانى، حين أراد بيكيت أن يحافظ على استقلال الكنيسة الإنجليزية من تدخل الملك فاغتاظ هنرى الثانى منه وحرض على قتله، فقام أربعة من الفرسان بقتل رئيس الأساقفة على درج المذبح فى كاتدرائية كانتربرى.

وهكذا وجد البابا إينوسنت الثالث مبررًا لاقتلاع الهرطقة فى أوروپا من جذورها. وكانت الكنيسة آنذاك مشغولة بشن الحروب الصليبية على أعدائها من المسلمين وتسعى إلى استرداد الأراضى المقدسة من قبضتهم. وكانت الحملة الصليبية الرابعة آنذاك قد انتهت لتوها (علمًا بأن العدد الكلى للحملات الصليبية بلغ عند معظم المؤرخين ثمانى حملات). ورأت الكنيسة أن الهرطقة أشد خطرًا على العقيدة المسيحية من المسلمين، فهى تهدد هذه العقيدة من الداخل فى حين أن المسلمين يهددونها من الخارج، ولهذا حشدت كل طاقاتها لسحق الألبيجنسيين الذين استشرى خطرهم فى جنوب فرنسا، وأصدر البابا إينوسنت الثالث أمرًا إلى فيليپ الثانى ملك فرنسا بتجنيد كافة الطاقات للقضاء على الألبيجنسيين، وحتى يغرى إينوسنت أعوانه بمحق

(*) الحرمان الكنسى يعنى طرد المحروم من كل خدمات الكنيسة، وامتناع كل المسيحيين عن أى شكل من أشكال التعامل معه، وتصبح كل أمواله وثرواته مستباحة، بل يصبح هو نفسه معرضًا للاستعباد ممن يريد ذلك ويقدر عليه، ولا يدفن فى مدافن المسيحيين، وبالطبع لا ينال الخلاص الأخروى.

المهرطقين، عرض أموالهم وممتلكاتهم غنيمة لمن ينتصر عليهم. وهكذا بدأت حرب ضروس عام ١٢٠٨ ضد الألبيجنسيين استمرت خمسة عشر عامًا، وفى ظل هذه الظروف التعسة نشأت فكرة محاكم التفتيش.

كان سيمون كونت مونتفورت الساعد الأيمن لإينوسنت الثالث فى حربه ضد طائفة الألبيجنسيين المهرطقة. وقد اشترك سيمون فى الحملة الصليبية الرابعة ضد المسلمين فأبلى فيها بلاء حسنًا، وما إن عاد من هذه الحملة حتى طلب منه إينوسنت الثالث أن يخلص الكنيسة الكاثوليكية من شر الهرطقة فى فرنسا، وفى عام ١٢٠٨ عينه البابا على رأس جيش تمكن من الاستيلاء على جميع مواقع المهرطقين، ولم يُظهر سيمون أدنى رحمة بأهالى كاركاسون، وبيزييه، وتولوز وغيرها من البلدان المارقة على الكنيسة، ولكن الألبيجنسيين لم يكونوا بأى حال لقمة سائغة، فقد قاتلوا ببسالة وبأس شديد قبل أن يندحروا أمام الكونت سيمون. وبالنظر إلى تعصب سيمون الدينى فقد رأى أن يعاقب المهرطقين بالحرق دون أدنى تردد. وعندما سقطت مدينة بيزييه المهرطقة فى يد جيش سيمون، عبر رئيس دير سيتو عن لهفته للقضاء المبرم على جميع المهرطقين، وعندما سئل كيف يمكن التمييز بين السكان المهرطقين وغير المهرطقين كان جوابه: «اذبحوهم جميعًا لأن الله سوف يعرف المخلصين له بكل تأكيد»!، ويقال إن الجيش الموالى لكنيسته قتل ما لا يقل عن عشرين ألف رجل وامرأة من أهالى مدينة بيزييه.

والجدير بالذكر أن هذه الحرب لحماية الكنيسة من خطر الهرطقة لم تكن تمامًا لوجه الله تعالى. فقد اختلط الحماس الدينى بالرغبة فى الاستيلاء على أموال وممتلكات المهرطقين، حتى سيمون دى مونتفورت الذى تصدى للمهرطقين بقوة وشجاعة كانت تحفزه الرغبة فى الاستيلاء على ممتلكاتهم.

ولحسن حظ المهرطقين أن البابا إينوسنت الثالث توفى فى صيف عام ١٢١٦، فخلفه بابا ضعيف متخاذل هو «هونوريوس الثالث» (١٢١٦ ـ ١٢٢٧) الأمر الذى أحيا الأمل فى نفوس المهرطقين فى جنوب فرنسا، واستطاعوا بالفعل إلحاق الهزيمة بجيش الكنيسة.

والذى يهمنا فى هذا المقام أن نعرف أن البابا إينوسنت الثالث والكونت سيمون مونتفورت هما اللذان زرعا بذرة محاكم التفتيش فى ربوع القارة الأوروبية، وفى العام الأول من تولى إينوسنت الثالث السلطة البابوية، قام بإرسال اثنين من رهبان طائفة السيستريان، هما ريز، وجويدو إلى جنوب فرنسا لاستئصال الهرطقة، وأصدر أوامره إلى كل الحكام والأشراف لتقديم المعونة إليهما، ولكن إخفاقهما فى مهمتهما أدى إلى نشوب الحرب ضد المهرطقين الألبيجنسيين.

وفى عام ١٢٠٩ عقد البابا مجمع أڤينيون الذى أصدر أوامره إلى جميع الأساقفة بإرغام الحكام وأصحاب السلطة على التعهد باستئصال الهراطقة. وفى نوفمبر ١٢١٥ أى بعد انقضاء ستة أعوام اجتمع مجمع لاتيران الرابع الذى أمر بشن حرب صليبية جديدة على المسلمين الذين احتلوا الأراضى المقدسة. وقد أصدر هذا المجمع سبعين مرسومًا ذات طابع إصلاحى يقضى بعضها بأن يُقسِم كل من يتولى السلطة علنًا أنه سيبذل قصارى جهده لتطهير وجه البسيطة من الهرطقة، وينص أحد المراسيم الصادرة على اعتبار الامتناع عن اقتلاع جذور الهرطقة جريمة يعاقب المسئول عنها بالحرمان الكنسى، الأمر الذى شجع بطبيعة الحال على انتشار التجسس على الخلق.

وأيضًا فى عهد البابا إينوسنت الثالث نشأت الطائفتان الدينيتان الرهبانيتان: الفرنسيسكان فى ١٢٠٩ (نسبة إلى القديس فرنسيس الأسيسى ١١٨١ ـ ١٢٢٦)، والدومينيكان نسبة إلى (القديس دومينيك). ومن المؤسف أن هاتين الطائفتين اللتين أظهرتا تحمسًا واضحًا فى القضاء على الهرطقة تعتبران، رغم تقواهما وحسن نواياهما، مسئولتين عن نشوء محاكم التفتيش.

ينحدر القديس دومينيك من عائلة إسپانية شديدة التدين والورع، فأخوه أنتونيو الذى أعطى كل ثروته للفقراء أصبح قسيسًا علمانيًّا يقوم بخدمة المرضى فى المستشفيات. وحين بلغ دومينيك الرابعة عشرة من عمره عام ١١٨٤ نذر الغلام حياته لخدمة الفقراء والمساكين والتخفيف عن بؤسهم بقدر استطاعته. وبسبب زهده فى الحياة أنشأ دومينيك طائفة تعرف باسم «الرهبان الجوالون أو الشحاذون»، الذين اقتدوا بالسيد المسيح فى نبذ كافة مظاهر العظمة والأبهة الدنيوية. وكان من الممكن أن يعيش دومينيك مغمورًا لا يسمع به أحد لولا أن ألفونسو ملك كاستيلا بإسپانيا وقع اختياره على دييجو دازيفيدو كمبعوث له فى تولوز بفرنسا، ووقع اختيار هذا المبعوث على دومينيك كى يرافقه فى رحلته إلى فرنسا، وشعر دومينيك بالنفور والامتعاض من مظاهر الأبهة التى حرص مندوبو البابا على إحاطة أنفسهم بها، ووصل إلى قناعة مفادها أنهم لن ينجحوا فى التقرب إلى عامة الناس وهداية المهرطقين إلا إذا اختاروا لأنفسهم طريق الزهد والتقشف. والغريب أن المهمة التى أرسل الملك ألفونسو التاسع مبعوثه دييجو دازيفيدو من أجلها إلى فرنسا لم تكن تتصل بالهرطقة من قريب أو بعيد، بل كان هدفها اختيار أميرة فرنسية كعروس لفرديناند ولى عهده، وشاءت الظروف أن تموت هذه الأميرة والمبعوث لا يزال فى طريق العودة إلى بلاده، فاغتنم الراهبان المسافران الفرصة لزيارة بابا روما. وتركت رحلتهما إلى فرنسا ـ التى لم تحقق أهدافها ـ أثرها البالغ والعميق فى نفس المبعوث الإسپانى ورفيقه دومينيك، فقد شاهدا عن

كثب جنوب فرنسا وهو يمور بالهرطقات، وعبر الراهبان عن رغبتهما فى ترك الدير والانخراط فى المجتمع لإعادة المارقين إلى حظيرة الدين، ولكن البابا إينوسنت الثالث لم يتحمس لاقتراحهما وقال إنهما يستطيعان إذا رغبا الانضمام إلى صفوف الرهبان السيستريان، الذين سبق أن أرسلهم إلى جنوب فرنسا لمحاربة الهرطقة، وقبل الراهبان العمل تحت إمرة السيسترييان. غير أن حماسهما المتقد للزهد والاتضاع جعلهما يعملان كل ما فى وسعهما لإقناع السيسترييان بنبذ الرفاهية والنفخة الكاذبة. ومن ناحيته ظل دومينيك يعمل بلا كلل أو ملل، ولا غرو فقد كان شديد التعصب. وعندما اغتيل المفوض البابوى كاستلنو، واندلعت الحرب ضد المهرطقين الألبيجنسيين توثقت عرى الصداقة بين دومينيك والنبيل سيمون دى مونتفورت.

وإذا كان القديس بنديكت أول محقق فى محاكم التفتيش عرفته أوروپا فى العصر الوسيط، فإن البابا جريجورى التاسع هو الأكثر فظاعة وترويعًا، إذ لم يكد جريجورى التاسع يعتلى أريكة البابوية حتى حث الإمبراطور فردريك الثانى أن يشن حملة صليبية على بيت المقدس، ولكن فردريك الثانى لم يكن فى عجلة من أمره ولاحظ الإمبراطور أن البابا جريجورى التاسع يختلف عن سلفه البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ ـ ١٢٢٧) فى أنه أكثر منه تعصبًا ضد المخالفين فى الرأى والعقيدة. وبالنظر إلى الضغط الشديد الذى مارسه البابا جريجورى التاسع على الإمبراطور فردريك الثانى، فقد قبل الإمبراطور أن يضطلع بحملة صليبية من أجل استعادة الأراضى المقدسة من المسلمين.

بدأ فردريك حملته الصليبية إلى بيت المقدس فى سبتمبر عام ١٢٢٧، ولكن لم تمض ثلاثة أيام عليها حتى اختلق عذرًا تعلل به للعودة إلى بلاده، فقد مرض أحد معاونيه واسمه لاندجريف ثور تيجيا فزعم الإمبراطور أن السفر سوف يقضى على حياة مريضه. وما إن علم البابا جريجورى التاسع بعودة الإمبراطور من رحلته حتى استشاط غضبًا وقام بحرمانه.

ثم انصرف انتباه جريجورى التاسع إلى تفشى الهرطقات فآل على نفسه أن يقتلعها من جذورها، وأثلج صدره ما بذله صديقاه القديسان فرنسيسكو برنادون، ودومينجو دى جوزمان فى هذا الصدد. وقد بلغ إعجاب البابا بمهمتهما ونشاطهما الكبير فى محاربة الهرطقة أنه قام بتنصيب فرنسيسكو قديسًا فى ١٦ يوليه عام ١٢٢٨ ليصبح بذلك القديس المعروف سان فرنسيس الأسيسى، وكذلك نصب دومينجو قديسًا فى ١٣ يوليه ١٢٣٤ ليصبح بذلك القديس دومينيك. وفى عام ١٢٢٩ أصدر جريجورى من خلال مجمع تولوز مرسومًا بأن يسلم المحققون فى محاكم التفتيش المهرطقين إلى الذراع المدنى (للكنيسة، أى السلطة المدنية) كى تتولى معاقبتهم.

وفى الفترة من عام ١٢٢٨ إلى عام ١٢٣١ انتهز المهرطقون فرصة غياب جريجورى التاسع عن روما ليعودوا إلى ممارسة هرطقتهم على نحو أعنف وأشرس من ذى قبل، الأمر الذى أثار ثائرة البابا، وما إن عاد إلى مقره فى روما حتى أمر بتطهير هذه المدينة من كافة آثار الهرطقة، وتم القبض على عدد كبير من المهرطقين الذين رفضوا الاعتراف بخطئهم، فصدرت الأوامر بإحراقهم أحياء أمام الملأ.

وحتى نعرف مدى ما تثيره عقوبة الحرمان الكنسى من فزع فى قلوب الناس، يكفى أن نذكر أن المحروم (أى المطرود) من الكنيسة يفقد جميع حقوق المواطنة، ولا يحق له شغل الوظائف العامة، وفى حالة مرضه لا يسمح لأى أحد بعلاجه أو بمساعدته أو تقديم العون له، كما يحظر تقديم الإحسان إليه، ويعاقب المحسن بالحرمان الكنسى إذا عنَّ له أن يقدم إحسانًا لأى مطرود من الكنيسة.

وفى تلك الفترة ظهر محارب شديد البأس ضد الهرطقة هو الراهب الدومينيكانى الإسپانى ريموند بينافورت، الذى لفت أنظار البابا جريجورى التاسع (والذى نصبه البابا كليمنت الثامن فى عام ١٦٠١ قديسًا).

ولد ريموند بينافورت بالقرب من برشلونة، وتبحر فى دراسة القانون الكنسى حتى صار أستاذًا فيه، ثم رحل من إسپانيا إلى إيطاليا. وفى فترة عمله كأستاذ للقانون الكنسى فى جامعة بولونيا ألف مبحثًا مهمًا عن التشريعات الكنسية، ثم عاد ريموند من إيطاليا إلى بلده إسپانيا حتى خالط الرهبان الدومينيكان واستمع إلى عظاتهم ليصبح واحدًا منهم، واهتم اهتمامًا بالغًا بهداية اليهود والمسلمين إلى الدين المسيحى لدرجة أنه أنشأ معاهد لتعليم اللغات الشرقية كى يتعلمها المبشرون المسيحيون الذين يسعون إلى هدايتهم إلى المسيحية.

ودفع اهتمام البابا جريجورى التاسع بريموند أنه استدعاه من إسپانيا إلى مقره البابوى عام ١٢٣٠ وكلفه بإعادة النظر فى القانون الكنسى، وبلغ إعجاب البابا بأفكاره اللاهوتية أنه اعتبره نموذجًا للدين الصحيح، وهكذا أصبح ريموند بينافورت واحدًا من أوائل الذين وضعوا أسس محاكم التفتيش.

أول محكمة تفتيش

وفى عام ١٢٣٢ قام البابا جريجورى التاسع بإنشاء أول محكمة تفتيش، فقد أصدر مرسومًا

هدد فيه المهرطقين بالطرد من الكنيسة، كما أمر بتسليم كل مهرطق عنيد ومكابر إلى الذراع المدنى لمعاقبته دون أن يكون للكنيسة أى دخل فى هذا العقاب. وكان الموت حرقًا عقاب أى مهرطق يرفض التوبة، أما المهرطقون التائبون فكان يحكم عليهم بالسجن، فضلًا عن معاقبة أى شخص يقدم المساعدة للمهرطقين بالطرد من الكنيسة، ويعطى للمطرود من الكنيسة مهلة سنة كى يثبت بعدها أنه تطهر تمامًا منها، فإذا فشل فى ذلك تتولى محكمة التفتيش مساءلته. وإذا عَنَّ لشخص أن يصلى الصلوات المسيحية على جثمان أى مهرطق وأن يدفنه فى مقابر المسيحيين فلا بد من فرض الحرمان الكنسى عليه حتى يستخرج الجثة من مدفنها. وكذلك نص المرسوم الذى أصدره جريجورى التاسع على أن الواجب يحتم على كل مسيحى التبليغ عن أى مهرطق يعلم بوجوده وإلا عوقب بالطرد من الكنيسة، حتى أبناء المدانين بالهرطقة يحرمون من حق تقلد الوظائف العامة حتى الجيل الثانى. وإنه لمفارقة ما بعدها مفارقة أن يختار المحققون من الرهبان وبالذات من طائفتى الفرنسيسكان والدومينيكان، ومن ثم فإن الطائفتين مسئولتان عن إنشاء محاكم التفتيش وعن الجرائم التى ارتكبتها.

***

قد يتساءل المرء لماذا كانت محاكم التفتيش الإسبانية أكثر عنفًا وضراوة من مثيلاتها الأوروبية؟

يرى البعض أن السبب يرجع إلى كثرة ما تعرضت له إسبانيا من غزو؛ هذا الاستعمار المتكرر لإسبانيا عبر التاريخ قد يكون السبب الذى جعل ملكها فرديناند الخامس وملكتها إيزابيلا يتطلعان إلى إنشاء محاكم تفتيش قوية تستطيع أن تلعب دورًا حيويًّا فى تماسك البلاد واستقرارها. ويتكون السكان الأصليون فى إسبانيا من الأيبيريين فى الشمال والتارتسيين فى الجنوب، فضلًا عن نزوح بعض القبائل الكلتية من فرنسا فى الشمال ومن الجزر البريطانية فى الغرب.

وفى عهد مملكة القوطيين الذين حكموا إسبانيا، استطاع الملك ليوفيجيلد توحيد إسبانيا، وأن يجعل منها قوة سياسية ذات بأس عظيم، ولكن ابن هذا الملك واسمه هيرمنجيلد اعتنق المسيحية وصار فيما بعد القديس هيرمنجيلد، وعندما اعتلى أخوه ريكاربد أريكة الحكم تحول إلى الدين المسيحى فى طليطلة (توليدو) عام ٥٨٩ ميلاديًّا، الأمر الذى أدى إلى تصاعد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية.

وفى مطلع القرن السابع الميلادى اشتهر إيزيدور أسقف إشبيلية بقدرته الفائقة على الوعظ وبكتاباته المتميزة فى مجال الفلسفة واللاهوت، فضلًا عن أنه ألف كتابًا فى تاريخ المملكة الإسبانية

القوطية. وإلى جانب انتشار العقيدة المسيحية فى إسپانيا كان هناك عدد كبير من اليهود الذين أمعن المسيحيون فى التنكيل بهم مما دفع الكثيرين منهم إلى التقية والتظاهر بالتحول إلى الدين المسيحى، كما اضطرهم إلى الهجرة إلى شمال أفريقيا. وقبل أن نعرض لوضع اليهود فى إسپانيا يجدر بنا أن نسوق نبذة عن أوضاع إسپانيا والبرتغال الجيوپوليتيكية والديموجرافية آنذاك.

***

كانت البرتغال التى تقع غرب إسپانيا مجتمعًا صغيرًا مطرد النمو والاتساع يتكون من أقل من مليون نسمة، تركز نشاطها على البحر والتجارة. وكانت الأندلس الواقعة فى الجنوب تضم نصف مليون مسلم معتزين بثقافتهم التى كانت تسيطر فى يوم ما على شبه الجزيرة الإسپانية، وكان هؤلاء الأندلسيون المسلمون يشتغلون بالزراعة وصناعة الحرير، وفى الوسط والشمال كانت إسپانيا المسيحية تتكون مما يقرب من ستة ملايين نسمة، وتنقسم إلى مملكة كستيلا أو كستيل، وبالعربية قشتاله (التى تشمل ثلثى شبه الجزيرة وتحتوى على ثلاثة أرباع سكانها)، وتاج أراجون (الذى يتكون من عدة ممالك صغيرة هى: ڤالنسيا أو پلنسية، وأراجون وكاتالونيا).

تعرضت شبه الجزيرة الإسپانية لغزو الرومان ثم العرب، ومن ثم كانت شبه الجزيرة الإسپانية موطنًا للأديان السماوية الثلاثة: الدين المسيحى بكنائسه ذات الطابع الرومانى وكاتدرائياته القوطية فى بورجوس، إلى جانب المعابد اليهودية فى توليدو (طليطلة)، ومئذنة الجامع الفخم فى قرطبة وجلال الهمبرا (الحمراء) فى غرناطة، ولكن التعايش بين هذه الأديان الثلاثة كان يشوبه التوتر، فالقوات المسيحية تتقدم لاسترداد الأراضى التى استولى عليها المسلمون نتيجة غزواتهم القادمة من شمال أفريقيا فى القرن الثامن، ولكن ينبغى أن ندرك أن الصلات المستمرة بين أتباع الديانات الثلاث أدت إلى نوع من التعايش السلمى (غير القائم على الحب) خلال فترات طويلة من الزمن، ويقول مؤرخ من القرن الثالث عشر إن الصراع المسلح الذى احتدم بين المسيحيين والمسلمين لم يكن بسبب الدين، ولكن بسبب التنافس على امتلاك الأرض. وكان المسيحيون الذين يعيشون فى المناطق الخاضعة للحكم الإسلامى يعرفون باسم «المستعربين» فى حين كان المسلمون الذين يعيشون تحت الحكم المسيحى يعرفون بـ «المدجنين ـ Mudejares» وكانت التحالفات العسكرية تعقد بغض النظر عن ديانة المتحالفين، فالملك فرديناند الذى حكم كستيلا فى الفترة من ١٢٣٠ حتى ١٢٥٢ أطلق على نفسه ملك الأديان الثلاثة (المسيحية ـ اليهودية ـ الإسلام) فى وقت كانت فيه أوروپا على أعتاب قرون من الظلام والتعصب الدينى؛ حيث إنه فى نحو عام ١٢٣٢ ظهرت إلى الوجود فى أوروپا أول محكمة تفتيش. ورغم الصراعات المحتدمة بين المدجنين والمسيحيين

وبين المسيحيين واليهود فإنه لا مناص من الاعتراف بأن تعدد الثقافات وتنوعها زاد من احتمالات التعايش السلمى والاحترام المتبادل بين الأديان.

ويتضح مما تقدم أن الإسپان عاشوا فى مجتمع مفتوح نسبيًّا منذ وقت مبكر، ولهذا كان ممكنًا فى عز الصراع الدائر بين المسيحيين والمسلمين أن يؤلف فيلسوف من كاتالونيا اسمه رامون ليل (المتوفى عام ١٣١٥) حوارًا باللغة العربية بين مسيحى ومسلم ويهودى. والغريب أن فترة القرون الوسطى شاهدت صلات سياسية وتبادل علاقات ومصالح بين المسيحيين والمسلمين كما يتضح لنا من قصيدة «السيد» التى نُظِمت عام ١١٤٠. والسيد كما هو واضح كلمة عربية قحة، وتحدثنا هذه القصيدة عن نبيل عاش فى مملكة كستيلا نحو عام ١١٤٠ اسمه الحقيقى رودريجو دياز دى فيفاد، ورغم أنه مسيحى فقد أشاح رودريجو وجهه عن المسيحيين ليضع خدماته تحت تصرف حاكم سرقسطة (ساراجوسا) المسلم ليصبح الحاكم المستقل لمدينة پلنسية المسلمة بعد أن تمكن من الاستيلاء عليها، ورغم أنه حارب فى صفوف المسلمين واكتسب هويتهم فقد ظل المسيحيون يعتبرونه المثل الأعلى للمحارب المسيحى. غير أن هذا الجو الدينى المتسامح ما لبث أن انقشع رويدًا رويدًا وخاصة بعد أن أحكمت القوات المسيحية سيطرتها على المسلمين. ومع اشتداد روح التعصب بين الجانبين، أصبح اسم سانتياجو (ومعناه ذابح المسلمين) رمزًا للقديس القومى الحامى لحمى المسيحيين. ورغم توالى الهزائم التى لحقت بالمسلمين فإنهم استطاعوا فى منتصف القرن الثالث عشر الاحتفاظ بمملكة غرناطة. وبعد أن تمكن المسيحيون من دحر المسلمين، أصبحت مدينة توليدو (طليطلة) العاصمة الفكرية والثقافية لمملكة كستيلا ومركز إشعاع العلوم الإسلامية واليهودية. وفى مدينة طليطلة ازدهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر مدرسة المترجمين التى توفرت على نقل أهم الأبحاث الفلسفية والطبية والرياضية والكيميائية من اللغات السامية إلى اللغة اللاتينية، وهكذا وصل إلى الدارسين المسيحيين تراث ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن ميمون.

وأيضًا انتشرت فنون المدجنين (أى الأقلية المسلمة فى مجتمع مسيحى) فى أرجاء كستيلا، وبانهزام المسلمين على يد المسيحيين اختل التوازن الضرورى للتعايش السلمى. وبحلول القرن الرابع عشر شعر المسيحيون بالبأس والقوة الأمر الذى شجعهم على الإخلال بهذا التوازن لدرجة تعذر معها أن يعيش المسيحيون والمسلمون واليهود جنبًا إلى جنب، وبمقتضى التوازن الذى ساد قبل ذلك بين الأديان السماوية الثلاثة جرت العادة على استخدام المسيحيين فى الحرب وفلاحة الأرض، واشتغل المسلمون بتشييد المنازل، فى حين قام اليهود بالأعمال الفنية والإشراف المالى على

المنشآت، غير أن هذه الصورة تبدلت بعد أن انتصر المسيحيون على المسلمين فى إسپانيا. وبوجه عام لم تكن الأقلية المسيحية فى مجتمع أغلبيته من المسلمين تعانى من التوترات والاحتكاكات الدينية لسببين أولهما أنها كانت أقلية ضئيلة للغاية فى مملكة كستيلا، فضلًا عن أن هذه الأقلية المسيحية كانت تعيش بمعزل تام عن المسلمين فى مملكة أراجون. بينما كان اليهود أكثر تعرضًا للاضطرابات واندلاع أعمال العنف؛ لأن معظمهم كان يعيش فى الحضر، وباندلاع الحروب الأهلية فى إسپانيا فى عقد الستينيات من القرن الخامس عشر (١٤٦٠) فى كل من كستيلا وأراجون شاعت الفوضى فيها وانقسمت إسپانيا إلى بؤر نزاع لا ينتهى.

وعندما اعتلى فرديناند وإيزابيلا سدة الحكم عام ١٤٧٤ لم يعم السلام مملكة كستيلا وأراجون، ولكنهما استطاعا بالتدريج كسر شوكة النبلاء ورجال الدين المشاكسين ونجحا فى توجيه نزعة هؤلاء المشاغبين إلى التنابذ والعراك إلى شن الحروب من أجل الاستيلاء على غرناطة وناپولى. وحيث إن كستيلا كانت تزخر بالمال والمحاربين الأشداء، فقد استطاعت أن تتزعم أراجون. وهكذا عادت إلى كستيلا روحها القتالية القديمة، الأمر الذى انتهى بتحويل الجنود المسيحيين إلى وحوش كاسرة كما يتضح من حربهم ضد إيطاليا من ناحية ومن استيلائهم على غرناطة عام ١٤٨٧ من ناحية أخرى، وعندما تبين المسيحيون فى مورشيا فى القرن الخامس عشر أنهم بحاجة ماسة إلى العمالة المسلمة فى الريف والحضر، استنت المحليات قوانين خاصة لتوفير الحماية لهم، فضلًا على أنهم استخدموا اليهود فى الحرف والصناعات مثل صناعة الجلود والنسيج والماس.

استفاد المسيحيون من تفوق اليهود فى مجال جباية الضرائب وممارسة الطب. ورغم أن القوانين كانت من الناحية النظرية البحتة تحتم على الأقليات الالتزام بالبناء فى مقار سكنهم فإنها لم تراع هذا على أرض الواقع. ففى بلد الوليد تكاثر المسلمون وازدادت أهميتهم فسمح لهم بالإقامة حيثما يرغبون وبناء البيوت وامتلاك الكروم والأرض. وأصبح المسيحيون لا يستغنون عن المسلمين لدرجة أن الاحتفالات الدينية المسيحية لم تكن تستغنى عن الموسيقيين والحواة المسلمين. وفى وقت المحن والأزمات تضافرت جهود المسيحيين والمسلمين واليهود، فعندما أصاب الجفاف مدينة أوكليش احتشدت مواكب أتباع الأديان السماوية الثلاثة لتتضرع إلى الله كى ينزل عليهم المطر وينقذهم من براثن التحاريق، ولكننا لا نعدم أن نجد من المسيحيين من ينتقد هذا التعاون. ومن مظاهر هذا التعاون بين الأديان الثلاثة أن دييجو جوانزالو يذكر لنا أنه عندما كان يتيمًا ومعدمًا فى بلدة هويت فى العقد السابع من القرن الخامس عشر (١٤٧٠) تلقى الإحسان من بعض اليهود والمسلمين. ورغم هذا الوجه المشرق للتعاون والتضافر المشترك، فقد كان هناك وجه قبيح مثل

تطوع بعض اليهود للشهادة ضد بنى جلدتهم ممن تحولوا إلى المسيحية فى عام ١٤٩١. والذى لا شك فيه أن تعايش الأديان السماوية الثلاثة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ساعد فى كثير من الأحيان على الاحترام المتبادل بين هذه الأديان، ولهذا السبب نجد أن بعض المسيحيين يصرحون بأن المسلم الصالح يدخل الجنة شأنه فى ذلك شأن اليهودى والمسيحى الصالحين، بل إن بعض المسيحيين المتمردين على مجتمعهم لم يروا غضاضة فى اعتناق الإسلام مثلما اعتنق بعض المسلمين الدين المسيحى. وليس أدل على هذا التداخل الدينى من أن محكمة التفتيش فى سرقسطة قدمت فى عام ١٤٨٦ مسيحيًّا للمحاكمة لأنه دأب على القول بأنه مسلم وأنه يصلى مثل المسلمين فى الجامع، ورغم هذه النظرية الموغلة فى تسامحها الدينى فإن أتباع الديانات الثلاث تشبثوا بدياناتهم عندما ألمت بهم المحن وأصابتهم النوازل. وعلى أية حال يذهب الدارسون إلى أن إسپانيا بسبب تنوعها الدينى والثقافى لم تعرف الهرطقات فى شكلها الرسمى المنظم كما عرفتها بلاد أوروپية أخرى مثل فرنسا. كما أن إسپانيا ظلت لفترة طويلة لا تعرف حرق المهرطقين، ولكن هذه السماحة فى فهم الدين سرعان ما ولت عندما تمكن الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا من الانتصار على آخر معاقل المسلمين. ويرجع السبب فى اختفاء السماحة الدينية إلى رغبة هذا الملك وزوجته فى ضمان أمن واستقرار بلادهما اللذين اهتزا بشدة من جراء الحروب الأهلية فى كل من كستيلا وأراجون. أى إن إنشاء هذين الملكين لمحاكم التفتيش كان له دوافع سياسية، ولكن هذه المحاكم زادت من الفوضى والاضطراب الضارب أطنابه فى إسپانيا أكثر مما زاده الصراع بين المسيحيين والمسلمين.

اليهود فى إسپانيا

يرجع تاريخ اليهود فى شبه الجزيرة الإسپانية إلى القرن الثالث الميلادى، وكان تعداد جاليتهم يفوق عدد اليهود فى أى مكان آخر فى العالم، غير أن عددهم كان أقل من المسيحيين والمسلمين. ويرجح أن تعدادهم فى القرن الثالث عشر كان مائة ألف يهودى وبلغت نسبتهم أقل من ٢٪ من المجموع الكلى لسكان إسپانيا، وقد فضل الكثيرون منهم العيش فى المدن، ولكن معظم اليهود فى القرون الوسطى سكنوا القرى الصغيرة؛ حيث اشتغلوا بالفلاحة وتربية الأغنام وزراعة الكروم والبساتين وعاشوا فى سلام ووئام مع جيرانهم المسيحيين. وكان اليهود الساكنون فى الحضر على اتصال يومى بالمسيحيين لاشتغال هؤلاء اليهود بالبقالة والصباغة ونسج الملابس والحرف المختلفة. وكما أسلفنا ساد بين المسيحيين والمسلمين واليهود نوع من الوفاق الاجتماعى مكنهم من التعايش معًا، وأيضًا استطاعت التجارة وقطاع الأعمال تحطيم الحواجز بين أتباع الأديان السماوية

الثلاثة. فالمقاول المسيحى لا يجد غضاضة فى بناء البيوت لليهود، والحرفيون اليهود لا يجدون أية غضاضة فى العمل لدى أصحاب عمل مسيحيين، فضلًا عن السماسرة اليهود الذين يتوسطون بين المسلمين والمسيحيين، ولا شك أن هذا الاختلاط اليومى خلق جوًّا من التسامح الذى مكن أتباع الديانات الثلاث من التعايش السلمى لفترات طويلة، دون أن يعنى هذا أنهم يحبون بعضهم البعض.

ورغم هذه الصلات اليومية الدائمة فقد كان أتباع كل دين يعيشون بمعزل عن الآخرين، ويمارسون الطقوس الخاصة بهم. وقد وقع أكبر اضطهاد مسيحى لليهود فى إسپانيا فى القرن السابع، الأمر الذى جعلهم يرحبون بغزو المسلمين القادمين من شمال أفريقيا. وفى مدينة قرطبة شجع الخلفاء المسلمون اليهود على الانتعاش الاقتصادى والازدهار الاجتماعى، ولكن هذا الازدهار ما لبث أن تلاشى عندما أطاح الغزاة المرابطون ـ الموحدون بالخلافة الإسلامية وشرعوا فى اضطهاد المسيحيين واليهود على حد سواء مما اضطر اليهود إلى الهرب والفرار.

غير أن حدة التنافس السياسى والاقتصادى بين اليهود والمسيحيين كانت السبب فى وضع حد لإحساس اليهود بالأمن والاستقرار، فقد شاهدت أوروپا فى القرن الثالث عشر فصاعدًا صدور عدد من التشريعات المعادية لليهود. ففى فرنسا اجتمع المجلس الكنسى فى عام ١٢٣٥ ليصدر أمرًا إلى جميع اليهود بلبس شارة صفراء تبلغ مساحة عرضها أربعة أصابع لتمييزهم عن المسيحيين، وأدى التوتر فى علاقة المسيحيين باليهود فى المدن إلى انكفائهم على ذواتهم وتفضيلهم العيش فى أحياء خاصة بهم. وفى عام ١٢٩٠ قامت إنجلترا بطرد جميع اليهود من أراضيها، ثم فعلت فرنسا نفس الشىء فى عام ١٣٠٦، ولكن اليهود فى إسپانيا استمروا فى التعايش السلمى، غير أن حدة عداء المجتمع المسيحى لهم تصاعدت بسبب احتدام التنافس الاقتصادى بينهم.

وعندما اندلعت الحروب الأهلية فى مملكة كستيلا فى منتصف القرن الرابع عشر التهبت مشاعر الكراهية ضد اليهود فى بعض المدن، وأشعل فتيل التعصب الدينى فى جنوب إسپانيا فى عقدى السبعينيات والثمانينيات من القرن الرابع عشر رئيس شمامسة إيكجا واسمه فيرانيت دمارتينيه. ففى يونيه عام ١٣٩١ اندلعت أعمال الشغب بين الغوغاء فى الحضر وهاجمت طبقة الأثرياء واليهود على حد سواء. وفى مدينة إشبيلية قتل الغوغاء مئات اليهود، وانتقلت عدوى التعصب المسيحى فى كل أرجاء شبه الجزيرة الإسپانية، واضطر الناجون من الموت إلى اعتناق الدين المسيحى. ففى قرطبة ارتد عن الدين اليهودى عدد غفير من الناس، وفى پلنسية راح ضحية

أعمال الشغب فى الشهر التالى (يوليو) مائتان وخمسون يهوديًا، وأيضًا مات فى برشلونة فى شهر أغسطس نحو أربعمائة يهودى، كما تم الإجهاز على أهم مراكز الأقليات اليهودية التى تعيش بمعزل عن المجتمعات المسيحية. وبلغت ضراوة العنف ضد اليهود مبلغًا جعل السلطات الملكية فى كل من كستيلا وأراجون تحاول التخفيف من وطأته وحماية اليهود منه.

يقول اليهودى المعاصر «روبين بن نسيم» أن ملك أراجون وكثيرًا من حكام المدن والوزراء والنبلاء دافعوا عن اليهود ووفروا لهم ملاذًا آمنًا فى قلاعهم. وأحيانًا لم يكن الدهماء وحدهم المسئولين عن اندلاع أعمال العنف الطائفى ضد اليهود، بل شاركهم فى ذلك نفر من علية القوم. وعلى أية حال اضطر كثير من اليهود أيام هذا الاضطهاد إلى اعتناق المسيحية، وأطلق المسيحيون على الجماهير اليهودية التى تحولت عام ١٣٩١ إلى الدين المسيحى «المسيحيين الجدد» ونفس هذه التسمية أطلقت على المسلمين الذين نبذوا دينهم واعتنقوا المسيحية، وبطبيعة الحال لم يكن الكثيرون من هؤلاء المسيحيين الجدد يؤمنون حقًا بالدين المسيحى. وأصدرت محكمة أراجون مرسومًا بعدم جواز إكراه الناس على اعتناق المسيحية، بل إنها سمحت لليهود بالعودة إلى دينهم الذى نبذوه، ولكن كثيرًا من المسيحيين الجدد فى برشلونة ومايوركا وجدوا أمانًا أكبر فى عدم العودة إلى ديانتهم الأصلية.

والجدير بالذكر أن الكنيسة كانت تنظر بعين الشك والريبة إلى هؤلاء المسيحيين الجدد وتعتبرهم خونة وطابورًا خامسًا. ومن مظاهر الاضطهاد الواقع على اليهود فى إسپانيا استبعادهم من تقلد الوظائف الحكومية ومن ممارسة المهن. ومع ذلك فقد استطاع اليهود بفضل تفوقهم فى مجال الطب والإدارة المالية أن يلعبوا دورًا فى الحياة العامة الإسپانية، وكذلك كان يُعول عليهم فى الترجمة من اللغة العربية التى وجد المسيحيون الإسپان صعوبة بالغة فى إتقانها.

والجدير بالذكر أيضًا أن اليهود فى القرون الوسطى اتجهوا إلى التخصص فى الطب وإتقانه، الأمر الذى جعل أمراء ووجهاء أراجون وكبار رجال الدين المسيحى فيها يعتمدون عليهم. ونفس الشىء حدث فى مملكة كستيلا، وبسبب تفوق اليهود فى مجال الطب نسمع فى مدريد فى عقد الثمانينيات من القرن الخامس عشر عن إعفاء طبيب يهودى من دفع الضرائب، وعدم تطبيق قوانين المدينة عليه بسبب امتنانها له والاعتراف بفضله عليها.

ويرجع السبب فى اضطهاد المسيحيين الإسپان لليهود فى كثير من الأحيان إلى نجاحهم فى عالم المال والأعمال وتفوقهم فى مجال جباية الضرائب، ونحن نرى فى القرن الثالث عشر أن جانيم

الأول ملك أراجون يعين يهودًا لجباية الضرائب فى العديد من المدن الكبرى. وأقر هنرى الثانى ملك كستيلا فى عام ١٣٦٧ أنه لم يجد من يفوق اليهود فى جباية الضرائب. ومن ثم فلا غرابة فى أن نراه يعين اليهودى چوزيف بيكو عام ١٣٦٩ رئيسًا للخزانة العامة فى مملكة كستيلا، وفى عام ١٤٦٩ اشتكى كمورنيس أوكانا للملك هنرى الرابع من أن كثيرًا من القساوسة وكبار رجال الدين المسيحى يسمحون لليهود والمسلمين بالدخول إلى حرم الكنيسة لجمع العشور من المسيحيين، الأمر الذى يعتبر إساءة بالغة للكنيسة، وفى عهد الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا كان اليهودى إبراهام سنيور رئيسًا للخزانة، كما كان اليهودى داود أبولدفيا مسئولًا عن توفير إمدادات الجنود فى مدينة غرناطة، وأيضًا تم تعيين اليهودى إسحاق إبرافاتيل لجباية الضرائب المفروضة على الأغنام، فلا عجب أن نسمع من أحد الرحالة أن شعب كستيلا يصف الملكة إيزابيلا بأنها حامية اليهود.

وبعد مجازر عام ١٣٩١ التى أودت بحياة اليهود الذين يعيشون فى الجيتو تضاءلت أعداد اليهود الإسپان بشكل واضح، ففى مدينة طليطلة لم يزد عدد المنازل التى يعيش فيها اليهود بمعزل عن المسيحيين فى عام ١٤٩٢ على نحو أربعين منزلًا. فضلًا عن أن ثروات اليهود فى نهاية القرن الخامس عشر تضاءلت بصورة ملحوظة، وأصبح واضحًا أن أيام ازدهارهم قد ولت وانقضت.

ويرى بعض المؤرخين أن البقية الباقية من اليهود فى إسپانيا أعرضت عن فلاحة الأرض المضنية والشاقة، وآثرت حياة الدعة والاسترخاء فى المدن والعمل كترزية وبقالين وصانعى أحذية وجواهرجية، ولكن هناك من المؤرخين من يرى أنهم اشتغلوا بالزراعة فى مناطق إسپانية متعددة مثل الريف الأندلسى ومدن طليطلة وربوتيراجو، وهيتا، وأراجون، ولكنهم يذكرون أن اشتغال اليهود بالزراعة كان على نطاق محدود. ورغم المجازر التى أودت بحياة كثير من اليهود عام ١٣٩١ فإن الحظ كان حليف بعض اليهود القاطنين فى مدينة أفيلد؛ حيث إن نصف سكانها من اليهود البالغ عددهم سبعة آلاف نسمة لم يلحق بهم أى أذى، فضلًا عن الأقلية اليهودية التى عاشت فى زامورا لم يمسسها سوء؛ مما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أن العلاقة بين اليهود والمسيحيين ظلت ودية للغاية إبان القرن الخامس عشر فى كثير من أنحاء مملكة كستيلا، وعلى أية حال رغم تضاؤل عدد اليهود فى إسپانيا بعد المجازر التى تعرضوا لها فى عام ١٣٩١ فإنهم احتفظوا بهويتهم الثقافية، كما أنهم احتفظوا بأحقيتهم فى استنان التشريعات الخاصة بهم، مثل القانون الذى أصدرته مدينة بلد الوليد (فالادوليد) عام ١٤٣٢ تحت رعاية وحماية النبلاء والتاج الملكى الأمر الذى ساعد على تعايشهم مع المسيحيين. وفى عام ١٤٧٩ عبر الملك فرديناند عن تأكيده على ضرورة منح الاستقلال للمجتمع اليهودى فى مدينة سرقسطة.

وبدأت الجاليات اليهودية تنتعش من جديد. ففى عام ١٤٩٠ أصاب اليهودى سنيور ثروة طائلة تقدر قيمتها بستة عشر ألف دوقة تشمل حقول القمح والكروم وستة بيوت فى سيجوفيا والأندلس، كما أن اليهودى ميلاميد جمع ثروة كبيرة تشمل الأراضى والعقارات فى كل من سيجوفيا وأفيلد.

ولكن انتعاش اليهود المالى والاقتصادى لم يلغ التوتر، ففى كستيلا صدر عام ١٤١٢ مرسوم بحرمان اليهود من شغل الوظائف وحمل الألقاب، ومن الحق فى تغيير محل سكنهم، وحمل السلاح، كما حظر عليهم استخدام المسيحيين كخدم أو أُجراء، ومن الاشتغال كبقالين أو نجارين أو جزارين أو ترزية، فضلًا عن حظرهم من الحديث مع المسيحيين أو احتساء الخمور أو الاستحمام معهم، وضرورة ارتدائهم الخشن من الثياب، غير أن اليهود تجاهلوا تنفيذ هذه القوانين الصارمة.

وفى عام ١٤١٣ ـ ١٤١٤ نظمت كتالونيا مناظرة بين فقهاء المسيحيين واليهود فى مدينة توركوزا بحضور البابا بنديكت الثالث عشر، واستطاع الجانب المسيحى فى هذه المناظرة عن طريق التلويح والتهديد بالإبادة، تحويل نحو ثلاثة آلاف يهودى فى أراجون إلى الدين المسيحى، غير أن ملك أراجون ألفونسو الخامس ألغى عام ١٤١٦ كافة القوانين والتشريعات المعادية لليهود، فضلًا عن تقديم الحماية لهم، ومنع المسيحيين من الاعتداء عليهم ومن تحديد إقامتهم. كما أنه رغم احتجاج الأساقفة أصدر عام ١٤٣٨ أمرًا بالسماح للمرضى المسيحيين أن يعالجهم أطباء يهود أو مسلمون إذا رغبوا فى ذلك.

وفى عام ١٤١٢ حاولت مملكة كستيلا استنان تشريع يهدف إلى عزل اليهود عن المسيحيين فى الجيتو. ولكن هذا التشريع لم يوضع موضع التنفيذ قط، وأيضًا رفض الملك ألفونسو فكرة إقامة أحياء منفصلة خاصة بسكن اليهود. ونفس الشىء حدث فى إشبيلية عام ١٤٣٧، حيث صدرت الأوامر لليهود بأن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم، وبحلول عام ١٤٥٠ اتضح أن اليهود طلقاء يعيشون حيثما شاءوا. ولم تراع مدينة صوريا فى عامى ١٤١٢ و١٤٧٧ أوامر مماثلة بعزل مقر إقامة اليهود عن المسيحيين، وقد أثار اختلاط اليهود بالمسيحيين امتعاض عدد من المسيحيين مثل ألونسو دى أوربيسا ممثل طائفة الجيرونوميت. وبسبب احتجاج كثير من المسيحيين على اختلاط اليهود بهم وافق ملك كستيلا عام ١٤٨٠ على إصدار مرسوم يهدف إلى إلزام اليهود بالعيش بمعزل عن المسيحيين داخل أسوار عازلة، ورغم ذلك نجد أن اليهود الأثرياء فى مدينة صوريا عام ١٤٨٩ يعيشون فى منازل يقيمونها خارج الجيتو اليهودى، وأصدرت أوامرها للجالية اليهودية بضرورة الالتزام بتنفيذ قوانين طليطلة الملزمة لليهود بسكن أحياء خاصة بهم، ولكن اليهود لم يعيروا هذه القوانين أدنى التفات، وبعد مضى أربعة أعوام بذلت محاولات عام ١٤٨٨

لتنفيذ القانون فى أورنس دون طائل. وفى مملكة أراجون فى نفس الفترة حاولت بعض المدن ومن بينها سرقسطة عزل اليهود فى أحياء خاصة بهم، ولكن الملكة إيزابيلا والملك فرديناند تصديا بحزم ضد هذه الإجراءات. وبعد قرن على اندلاع أعمال الشغب فى عام ١٣٩١ ظهرت بعض مظاهر التمييز ضد اليهود، ففى عام ١٤٨٣ أمر الملك فرديناند اليهود فى سرقسطة أن يرتدوا قطعة قماش حمراء تمييزًا لهم عن المسيحيين، ولكن لا يوجد أى دليل على أنهم نفذوا هذا الأمر بالفعل، بل إن هناك دلائل على أن اليهود كانوا يتمتعون بالحظوة لدى هذا الملك. ومن رجال المال اليهود الذين تمتعوا بالحظوة عنده اليهوديان سنيور، وأبرافانل، فضلًا عن أن عائلة كاباليريا اليهودية سيطرت على الدوائر السياسية فى مدينة سرقسطة.

لكن التناقض الهائل فى عدد اليهود بسبب اعتناق الكثيرين منهم للدين المسيحى عقب مجازر ١٣٩١ كان له أثره الواضح فى انقراض الكثير من جالياتهم. ففى مملكة أراجون لم يبق من الجالية اليهودية فى عام ١٤٩٢ سوى ربع السكان الذين كانوا يعيشون هناك قبل قرن سابق، فضلًا عن أن أحياء اليهود الثرية فى كل من برشلونة وپلنسية ومايوركا، وهى من أهم المدن الإسپانية، اختفت تمامًا، كما تلاشت الجالية اليهودية فى جيرونا، وأيضًا شاهدت مملكة كستيلا مزيجًا من إبادة اليهود واستمرارهم على قيد الحياة. ففى إشبيلية انخفض عدد العائلات اليهودية من مائة عائلة قبل اندلاع العنف عام ١٣٩١ إلى خمسين عائلة بعد مرور نصف قرن.

وعندما تولت إيزابيلا سدة الحكم انخفض عدد اليهود فى مملكة كاستيلا إلى أقل من ثمانين ألف يهودى، وتلاشى وجود اليهود من بعض المراكز اليهودية سابقًا مثل كورنيكا.

***

الفصل الأول

الملك فرديناند

والملكة إيزابيلا واليهود

منذ بداية اعتلاء إيزابيلا وفرديناند العرش عام ١٤٧٤، عقد هذان الملكان العزم على الحفاظ على التوازن بين اليهود والمسيحيين وعلى التعايش بينهم فى سلام ووئام. وتدل الشواهد على خلو ملوك إسپانيا على الصعيد الشخصى من المشاعر المعادية للسامية. ففى عام ١٤٦٨ كان الملك فرديناند يستخدم طبيبًا يهوديًّا من كاتالونيا يدعى داڤيد أبينا سايا، فضلًا عن أن فرديناند وإيزابيلا ربطتهما ببعض الأطباء ورجال المال اليهود صداقة حميمة. تقول الملكة إيزابيلا عام ١٤٧٧ فى هذا الشأن: «إن سائر اليهود فى مملكتى هم رعيتى وتحت رعايتى وحمايتى، ويتعين علىَّ الدفاع عنهم وتقديم المساعدة إليهم وإقرار العدل بينهم». وأيضًا وفرت هذه الملكة فى عام ١٤٧٩ الحماية للجالية اليهودية فى كاكيريس. وكثيرًا ما كان ملوك إسپانيا يقفون فى وجه البلديات والمحليات الإسپانية التى تفرض القيود على اليهود وتحد من حرياتهم. ففى عام ١٤٧٥ صدرت أوامر ملكية إلى مدينة بيلباو لإلغاء القيود التجارية التى فرضتها على اليهود. وفى عام ١٤٨٠ صدر أمر ملكى إلى مدينة أولميدو لبناء بوابة فى الجدار المحيط بمساكن اليهود لتمكينهم من الوصول إلى ميدان المدينة، ومعنى هذا أن المحليات والبلديات هى التى كانت تناصب اليهود الإسپان العداء فى حين أن الملوك الإسپان كانوا يدافعون عنهم ويوفرون الحماية لهم.

يتضح لنا مما تقدم أن اليهود فى إسپانيا عانوا من سوء معاملة البلديات والمحليات لهم، ففى عام ١٤٧٦ قامت سلطات مادريجال بسن قوانين معادية لليهود لإرغامهم على تمييز أنفسهم بلبس شارة مميزة ومنعهم من ممارسة الربا، واحتج اليهود فى أفيلد على هذه القيود ورفضوا إقراض المسيحيين أى نقود لحين إلغاء القوانين التى تحرم الربا، وأيضًا احتج اليهود عام ١٤٨٠ على سلطات طليطلة التى حاولت اتباع سياسة عزل اليهود وتقييد حركتهم فى أحياء سكنية خاصة بهم (الجيتو). وفى عام ١٤٨٤ فرضت مدينة بورجوس حظرًا على اشتغال اليهود ببيع الطعام، كما صدرت أوامر فى ١٤٨٥ لإغلاق أحيائهم فى أيام الأعياد المسيحية. وفى عام ١٤٨٦ صدر أمر من البلديات لتحديد عدد اليهود الذين يقطنون الجيتو (ولكن الملك تدخل فيما بعد لإلغاء هذا الأمر). وليس هناك شك فى أن رجال الدين المسيحى فى مدينة سرقسطة أججوا المشاعر المعادية لليهود فى أواخر القرن الخامس عشر.

وكما أسلفنا كان الملوك يعاملون الأقليات اليهودية بتسامح واضح، فضلًا عن أن هذه الأقليات كثيرًا ما كانت تضرب عرض الحائط بالقوانين التى تسنها المحليات، الأمر الذى وفر قدرًا لا بأس به من الحرية لليهود فى إسپانيا. وبحلول عام ١٤٨٠ بدأ ملوك إسپانيا يقتنعون نتيجة تحول أعداد هائلة من اليهود للدين المسيحى (عن غير اقتناع) بعدم جدوى فصل الجاليات اليهودية عن المسيحيين. وبإنشاء محاكم التفتيش فى إسپانيا عام ١٤٨٠ (التى تأخر ظهورها عن محاكم التفتيش الأوروپية بنحو قرنين من الزمان)، اكفهرت حياة اليهود وتلبدت بالغيوم، ومما زاد من نكدهم أنهم لاقوا فى بعض الأحيان خسفًا من بنى جلدتهم الذين تحولوا إلى الدين المسيحى أكثر من الاضطهاد الذى لاقوه على أيدى المسيحيين أنفسهم.

ونحن نرى أن اليهود فى بورجوس فى عام ١٣٩٢ يشكون من أن بنى جلدتهم الذين تحولوا حديثًا إلى المسيحية، وخاصة من أصبح منهم قساوسة ورجال دين، يمعنون فى اضطهاد اليهود. ولهذا توترت العلاقات فى كثير من الأحيان بين اليهود وبين بنى جلدتهم الذين نبذوا اليهودية ليعتنقوا المسيحية، فى حين ذهب أحبار اليهود فى أوائل القرن الخامس عشر إلى أن بنى جلدتهم أُرغموا على اعتناق الدين المسيحى، ولكن نراهم فى منتصف هذا القرن يغيرون رأيهم ويقررون أن زملاءهم اعتنقوا المسيحية طواعية وعن طيب خاطر.

وهكذا نشأ صدع فى صفوف اليهود وسرت روح التوتر والشك والتنابذ بينهم. ومما يدل على تدهور علاقة اليهود باليهود أن كثيرًا منهم عند إنشاء محاكم التفتيش لم يجدوا غضاضة فى الشهادة ضد اليهود الذين تحولوا إلى الديانة المسيحية. والجدير بالذكر أن اليهود الصرف كانوا أوفر حظًّا من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية من حيث إن قوانين محاكم التفتيش لا تطبق عليهم. وكثرت وشاية اليهود باليهود المتحولين إلى النصرانية، فنحن نرى فى مدينة كالاتابود (فى مملكة أراجون) عام ١٤٨٨ يهوديًّا اسمه أكاتس دى فيونس يعامل باحتقار من جانب اليهود والمسيحيين على حد سواء باعتباره كاذبًا وغشاشًا. كان هذا اليهودى السيئ الخُلق يدلى بشهادته الباطلة أمام محاكم التفتيش ضد بنى جلدته المتحولين إلى النصرانية متهمًا إياهم بالتظاهر بالمسيحية فى حين أنهم كانوا فى المواقع يمارسون طقوس ديانتهم اليهودية. ونحن نقرأ عن يهودى يقيم فى مدينة أراندا فى عقد الثمانينيات فى القرن الخامس عشر يبحث عن بعض اليهود المستعدين للشهادة الزور ضد يهود آخرين مدفوعين إلى ذلك بالكراهية والعداوة الشخصية. ويخبرنا هيرناندو ديل بولجار عن قيام اليهود فى طليطلة بالإدلاء بالشهادة الزور ضد زملائهم المتحولين إلى الدين المسيحى، وعندما علمت الملكة بكذب وشايتهم أمرت بالقبض عليهم وتعذيبهم. ونفس الشىء تكرر فى مدينة

صوريا فى عام ١٤٩٠، حيث نرى طبيبًا يهوديًّا يشى ببنى جلدته الذين اعتنقوا النصرانية مدعيًّا أن مواطنًا يهوديًّا وصف الراهب توركويمادا بأنه ألعن رجل فى العالم وبأنه مهرطق شرير، وفى مدينة أوكليس قام اثنا عشر يهوديًّا فى عام ١٤٩١ بتبليغ محاكم التفتيش بأن عددًا من اليهود الذين يتظاهرون بالنصرانية يمارسون شعائرهم اليهودية. وطبقًا لما يقوله الحبر اليهودى كامسالى، فقد طلبت محاكم التفتيش من المعابد اليهودية أن تتولى إلزام اليهود بالتبليغ عن بنى جلدتهم الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية.

ولم تعد وشاية اليهود باليهود بأية فائدة لهم، بالعكس كانت نتيجتها أن بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية فى عقد الستينيات من القرن الخامس عشر طالبوا بضرورة عزل اليهود عن المسيحيين، وأيضًا دفعت هذه الوشايات محاكم التفتيش إلى السعى إلى طرد عدد من اليهود.

ففى نهاية عام ١٤٨٢ أمرت محاكم التفتيش بطرد جانب من اليهود الذين يقطنون الأندلس، وتركت لهم حرية اختيار العيش فى مناطق إسپانية أخرى. وأيضًا صدر أمر فى يناير عام ١٤٨٣ بطرد اليهود من أسقفيات إشبيلية وقرطبة وكاديز، ولكن الملك أرجأ تنفيذ هذا الأمر ولم يتم استبعادهم من إشبيلية إلا فى صيف عام ١٤٨٤، ولكن يجدر بنا أن نتذكر أن أحد أسباب طرد اليهود هو الخوف من تعاونهم مع حكام مملكة غرناطة المسلمين الذين هاجمتهم جيوش الملك فرديناند، ولكن أوامر الطرد لم تطبق على عدد كبير من اليهود فى كاديز وقرطبة، ففى عام ١٤٨٦ أصدرت محاكم التفتيش فى أراجون أمرًا بطرد اليهود من أبرشيات سرقسطة وألبارسن وترويل، ولكن السلطة الملكية أرجأت تنفيذ هذا الأمر ثم قامت بإلغائه فى وقت لاحق. وفى نفس الوقت قامت بعض المدن بتنفيذ سياسة طرد اليهود متجاهلة اعتراض الملك واحتجاجه.

وعلى الرغم من تدخل الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا المتكرر لحماية اليهود من الاضطهاد، فإن توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش الإسپانية (ولصيق الملكة إيزابيلا) استطاع إقناعهما بضرورة عزل اليهود عن المسيحيين. وعندما اتضح لهما أن اتباع سياسة الطرد المحلى لليهود وإعطائهم حرية اختيار العيش فى مناطق إسپانية غير مجدية، لجأ إلى طردهم من البلاد طردًا شاملًا.

كانت الأقليات اليهودية التى طردتها البلاد الأوروپية فى القرون الوسطى من أراضيها ضئيلة فى حين كانت أعداد اليهود المطرودين من إسپانيا آنذاك كبيرة.

ولم تكن الأقلية اليهودية الإسپانية الوحيدة التى تعرضت للملاحقة والأذى، فقد امتد الأذى إلى الأقلية المسلمة. وابتداء من عام ١٤٨٠ كانت جميع موارد الاقتصاد الإسپانى موجهة لشن

الحرب على المسلمين المتمركزين فى غرناطة، وفى عام ١٤٩٠ اتهم المسيحيون المسلمين فى جوادا لاجارا بتحويل طفل يهودى إلى الدين الإسلامى، وعلى الرغم من أن المسلمين تعللوا بأن التحويل من دين إلى آخر فى إسپانيا كان أمرًا عاديًّا فقد أصدر المجلس الملكى الإسپانى قرارًا بعدم جواز تحويل اليهود إلى مسلمين، وكذلك عدم جواز تحويل المسلمين إلى يهود. كما أن القانون الإسپانى حظر على المسيحيين اعتناق أى من الديانتين اليهودية والإسلامية منذ عام ١٢٥٥ على أقل تقدير. وعندما قام المسيحيون الإسپان أثناء حربهم ضد غرناطة بالقبض على جماعات مسيحية اعتنقت الدين الإسلامى عقب سقوط مدينة مالاجا (مالقا)، نفذت حكم الإعدام الفورى فيهم، ولكن على النقيض من ذلك نرى الكنيسة الكاثوليكية عندما اكتشفت وجود حالات كثيرة من المسلمين المتحولين إلى المسيحية رحبت بنبذهم الإسلام.

وتردد الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا بعض الوقت قبل الموافقة على اتباع سياسة طرد اليهود؛ نظرًا لأن طردهم يسبب خسارة فادحة؛ لأن اليهود كانوا يدفعون الضرائب المفروضة عليهم مباشرة إلى الخزانة الملكية. وساهمت هذه الضرائب فى تمويل الحرب التى شنها الملك فرديناند ضد المسلمين فى غرناطة، فضلًا عن أن كثيرًا من الإسپان المسيحيين تحمسوا لطرد اليهود للتخلص من قدراتهم التنافسية العالية فى مجال المال والاقتصاد. ويبدو أن الملك فرديناند اتخذ قراره بطرد اليهود من البلاد بدوافع دينية بحتة، وشجعه على هذا الإجراء سقوط غرناطة المسلمة فى يده فى يناير ١٤٩٢، واعترف الملك أن طرد اليهود أضر بدخله وموارده الاقتصادية. وفى ٣١ مارس من ذلك العام أصدر الملك والملكة مرسومًا بطرد اليهود من كستيلا وأراجون، وخيرهم المرسوم بين اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد، فاعتنقها الكثيرون منهم عن غير اقتناع.

وبرر المرسوم سياسة طرد اليهود بأن اليهود المتحولين إلى النصرانية يتعرضون للأذى بسبب اتصالاتهم المستمرة وتعاملاتهم اليومية مع بنى جلدتهم الذين لا يكفون عن إغرائهم بنبذ المسيحية والعودة إلى دينهم الأصلى.

وقد عجزت محاكم التفتيش عن حل هذه المشكلة الشائكة على مدى اثنى عشر عامًا. وبالنظر إلى قلة أعداد اليهود المطرودين من الأندلس فقد قررت السلطات الإسپانية أن الحل لهذه المشكلة لا يكمن فى الطرد بقدر ما يكمن فى ضرورة عزل اليهود عزلًا كاملًا عن المسيحيين ثم طردهم.

وعندما علم اليهود بنية الإسپان المتجهة إلى طردهم، قام أحد أثريائهم، إسحاق أبرافاتيل، على رأس وفد من بنى جلدته لمقابلة الملك والتفاوض معه، ولكن الوفد فشل فى إثنائه عن عزمه فعرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال نظير الرجوع عن قراره، ويقال إن الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش الراهب توركويمادا عندما سمع بأمر هذا العرض استشاط غضبًا فى وجود الملك وقذف بثلاثين

قطعة من الفضة على المائدة، وهى الثمن الذى قبضه يهوذا لتسليم السيد المسيح إلى قتلته. وطالب توركويمادا الملك بأن يخبره بالمبلغ الذى عرضه عليه اليهود لخيانة المسيح مرة أخرى. وفى مقابلة ثالثة أجراها زعماء اليهود وأثرياؤهم مع الملك، اتضح لهم بما لا يدع مجالًا للشك عزمه على طردهم، فالتجأوا إلى الملكة إيزابيلا لعلها تستجيب لهم، ولكن تبين لهم أنها تؤيد الملك فى سياسته تأييدًا كاملًا.

والواقع أن الاقتراح بطرد اليهود جاء من محاكم التفتيش التى قامت بصياغة مرسوم الطرد بلغة تقطر بكراهية السامية. وبعد أن اتبع الملك فرديناند منذ عام ١٤٨١ سياسة الطرد الجزئى لليهود نراه بعد ذلك ينتهج سياسة الطرد الشامل لهم استجابة لرغبة محاكم التفتيش.

ويتضح لنا من نسخة الخطاب الذى أرسله هذا الملك إلى حاكم مدينة أراندا موافقته المطلقة على سياسة طرد اليهود، إذ يقول فى خطابه:

«إدراكًا من المكتب المقدس التابع لمحاكم التفتيش لما يتعرض له بعض المسيحيين من أخطار نتيجة اتصالهم باليهود، فإن المكتب رأى ضرورة طرد اليهود من جميع أراضينا وممالكنا، كما أنه أقنعنا بالموافقة على هذا الطرد وتأييده. وهذا ما نقوم بعمله الآن بسبب أفضال المكتب المقدس والالتزامات التى يحتمها علينا، ونحن نفعل هذا على الرغم من الخسارة الفادحة التى تلحق بنا؛ حيث إننا نستهدف ونفضل خلاص الأرواح أكثر مما نفضل الفائدة التى تعود علينا وعلى الأفراد».

وقد أكد الملك على الدور الذى تضطلع به محاكم التفتيش فى خطابات أخرى، فعلى سبيل المثال تذكر خطاباته الأخرى أنه تم تبليغ المفتشين فى محاكم التفتيش فى سرقسطة بأخذ رأى الكاهن سانت كروز، ويضيف الملك قوله: «ومن ثم قررنا كما قرر هذا الكاهن ضرورة طرد اليهود».

والجدير بالذكر أن معظم اليهود فى إسبانيا كانوا خاضعين لسلطة الملك القضائية فى حين أن البعض لم ينطبق عليه هذا الطرد. فاليهود الذين يعيشون فى الأراضى التابعة لدوق ميدناسلى مثلًا لم ينطبق عليهم الأمر الملكى بطرد اليهود من الأندلس فى عقد الثمانينيات من القرن الخامس عشر، مما دفع الملك إلى أن يوضح للنبلاء والحكام (مثل كاتالان دوق كاردونا الذى افترض أن اليهود الخاضعين لسلطانه لا ينطبق عليهم المرسوم الملكى) أن المرسوم الملكى يشمل جميع اليهود بدون استثناء، وحتى يشجع الملك الحكام الإسبان على طرد اليهود، منحهم ممتلكاتهم.

وكما أسلفنا أدت سياسة الطرد هذه إلى تحول الكثيرين منهم إلى الديانة المسيحية لدرجة أن

الحبر اليهودى فى قرطبة تنصر على أيدى الكاردينال مندوزا وبعض ممثلى الكرسى البابوى، وأيضًا تحول إلى المسيحية رئيس قضاة اليهود فى كستيلا إبراهام سنيور وهو فى الثمانين من عمره على يدى الملك والملكة؛ حيث إنه كان رئيس الخزانة الملكية ويعتبر نموذجًا لليهودى الذى استفاد من خدماته وإخلاصه للملك فى مساعدة بنى جلدته وتوفير الحماية لهم، فضلًا عن زميله رجل المال أبرافاتيل الذى أصبح الناطق باسم اليهود، وأخذ يتفاوض مع السلطات الإسپانية على شروط هجرة اليهود من إسپانيا.

وقد انتشرت القصص عن وحشية اليهود فى أرجاء إسپانيا، ومن بينها قيام بعضهم بقتل طفل مسيحى فى سيجوفيا عام ١٤٦٨، الأمر الذى دفع چوان أرياس دافيلد أسقف سيجوفيا، وهو يهودى تحول إلى الدين المسيحى إلى معاقبة ستة عشر يهوديًّا لتورطهم فى ارتكاب هذه الجريمة، فضلًا عن قصة قتل اليهود لطفل مسيحى فى مدينة لاجارديا فى منطقة طليطلة عام ١٤٩١. وقيل إن ستة يهود من المتنصرين اشتركوا فى ارتكاب هذه الجريمة، كما قيل أنه تم صلب الطفل المسيحى وانتزاع قلبه من مكانه من أجل صنع تعويذة سحرية للقضاء على المسيحيين، وقد تم تنفيذ حكم الإعدام فى مرتكبى هذه الجريمة فى أفيلد فى نوفمبر ١٤٩١، وقد بلغ ذيوع هذه القصة درجة أننا نجد رواية مطبوعة لها فى برشلونة. ولا شك أن مثل هذه الشائعات التى سرت بين الإسپان جعلت الكثيرين مستعدين لقبول إجراء طرد اليهود والاقتناع به، ونفس هذه القصة سبق ذيوعها فى إنجلترا (راجع كتابى «الهرطقة فى الغرب» دار سينا للنشر ١٩٩٧).

ولا بد أن اليهود الإسپان كانوا يدركون أن عمليات طرد اليهود كانت تجرى على قدم وساق فى البلاد الأوروپية المجاورة. ففى محافظة پروڤنس التى أصبحت جزءًا من فرنسا، اشتدت حدة معاداة السامية حتى انتهت بطرد اليهود من أراضيها، كما تصاعدت حدة معاداة السامية فى دوقيات إيطاليا فى بارما وميلانو اللتين قامتا بطرد اليهود هناك فى عامى ١٤٨٨ و١٤٩٠. ويلاحظ أن المرسوم الإسپانى الخاص بطرد اليهود يختلف عما حدث فى پروڤنس الفرنسية وبارما وميلانو الإيطالية فى أنه لم يقتصر على طرد اليهود، بل خيَّرهم بين الطرد والتحول للدين المسيحى، وهو تحول رحبت به الكنيسة الإسپانية. والجدير بالذكر فى هذا الصدد أن الملك فرديناند كتب بعد مضى شهرين من إصدار مرسومه الخاص بطرد اليهود إلى توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش ما يلى: «كثيرون يرغبون فى أن يصيروا مسيحيين، ولكنهم يخشون هذا بسبب محاكم التفتيش.. ومن ثم فإنى أطلب إليك أن تكتب إلى المحققين وتأمرهم ألا يتخذوا أية خطوات ضدهم إذا ثبت لهم وجود شوائب تشوب سلوك اليهود المتحولين إلى المسيحية، وخاصة إذا لم تكن هذه الشوائب جسيمة».

وعند طردهم من إسبانيا راودت اليهود أحلام مغادرة إسبانيا من أجل التوجه إلى أورشليم أو أرض الوعد، كما رأى المسيحيون فى انصهارهم مع المسلمين فى غرناطة إيذانًا بتدمير اليهود بدورهم. ولا أحد يعرف على وجه التحديد عدد اليهود النازحين من كستيلا وأراجون، فبعض المؤرخين يقدرونهم بمائة وسبعين ألف عائلة، فى حين يقدر آخرون عددهم بثمانين ألف نسمة، وعلى أية حال كان طرد اليهود من إسبانيا مأساة بكل المقاييس. وفى هذا الصدد كتب إسحاق أبرافينال يقول: «رحل من كافة المناطق التابعة للملك ثلاثمائة ألف يهودى سيرًا على الأقدام»، وكان اليهود فى أراجون أسوأ حظًّا من يهود كستيلا؛ حيث إن مجازر ١٣٩١ قضت على ربع تعدادهم. وفى مملكة بلنسية (ڤالنسيا) لم يزد عدد اليهود المقيمين هناك على نحو ألف يهودى عاش معظمهم فى مدينة ساجنتو. وفى ناڤار كان هناك نحو مائتين وخمسين أسرة يهودية، ومن ثم يمكن القول أن عدد اليهود الذين عاشوا فى إسبانيا عشية طردهم عام ١٤٩٢ زاد على ثمانين ألف نسمة.

ويصف لنا برنالديز محنة اليهود المطرودين من إسبانيا. فقد ساعد أثرياء اليهود جانبًا من فقرائهم فى تحمل نفقات التهجير، ولكن اليهود المعدمين لم يجدوا أمامهم سوى مخرج واحد من هذه المحنة وهى العماد واعتناق المسيحية. حتى اليهود الذين كانت لديهم ممتلكات لم يستطيعوا بيعها وتحويل عائدها إلى سبائك ذهب أو فضة؛ حيث كان محظورًا إخراج هذه السبائك من البلاد. ونجم عن ذلك كساد رهيب فى ممتلكات اليهود الذين عجزوا عن أن يجدوا مشتريًا لهم لدرجة أن اليهودى كان يضطر إلى بيع منزله مقابل حمار، أو كرمته مقابل كسوة من القماش، واكتظت السفن الناقلة لهم بأعداد غفيرة منهم، وأحيانًا كانت العواصف تضطر هذه السفن إلى الرجوع من حيث أتت، أى إلى الشواطئ الإسبانية مما دفع المئات من ركابها إلى اعتناق المسيحية من أجل البقاء فى إسبانيا. أما اليهود الذين استطاعوا الوصول بأمان إلى شواطئ شمال أفريقيا فقد تعرضوا للنهب أحيانًا والقتل أحيانًا أخرى، فضلًا عن أن سكان شمال أفريقيا ألقوا القبض على الكثيرين منهم واستعبدوهم وباعوهم فى سوق النخاسة، فى حين غرق آخرون فى البحر قبل وصولهم إلى بر السلامة، وأحيانًا كانت النيران تشتعل فى السفن التى تقلهم فيموتون حرقًا فى عرض البحر، كما أن الأمراض حصدت حياة بعضهم، ولم ينج من كل أنواع هذا العذاب غير عدد ضئيل منهم.

ورغم كل هذا الشقاء الذى كابده اليهود فإن عدد الذين هاجروا من إسبانيا بالفعل لم يكن بالضخامة التى قد يتصورها البعض؛ نظرًا لأن مئات الألوف منهم آثروا التحول إلى الدين المسيحى. وتشير الدلائل إلى أن نصف تعداد يهود إسبانيا فَضَّل التحول إلى الدين المسيحى على الطرد. فقد قامت أغلبية الجالية فى مملكة أراجون باعتناق الدين المسيحى، ومن المحتمل أن يكون يهود كستيلا قد فعلوا نفس الشىء. وبالطبع كان أحد الدوافع القوية للتحول إلى النصرانية هو

رغبة اليهود فى الاحتفاظ بممتلكاتهم، ومع ذلك فإن كثيرًا من اليهود رحلوا عن إسپانيا، ويحتمل أن يكون ثلث اليهود فى أراجون البالغ عددهم تسعة آلاف نسمة قد غادروها. وتوجه معظم يهود أراجون إلى إيطاليا فى حين ذهب معظم يهود مملكة كستيلا إلى بلاد أكثر تسامحًا معهم عن إسپانيا مثل ناڤار والبرتغال. وبمجىء عام ١٤٩٧ توقف اليهود عن الهجرة إلى هذين البلدين؛ نظرًا لصدور أوامر جديدة بضرورة اعتناقهم الدين المسيحى نتيجة زواج مانوفيل ملك البرتغال بملكة كاثوليكية، ولهذا السبب توجه كثير من المطرودين من الأندلس بوجه خاص إلى البلاد الواقعة فى شمال أفريقيا، فضلًا عن أن بعض اليهود فعلوا نفس الشىء نتيجة إرغام البرتغال لهم باعتناق النصرانية عام ١٤٩٧. وأيضًا أغلقت مملكة ناڤار باب الهجرة إليها عندما طلبت من اليهود فيها عام ١٤٩٨ التحول إلى المسيحية، وبعد مرور فترة طويلة بدأ اليهود ينزحون إلى تركيا. وقد شاهد دبلوماسى فى ميناء چنوه وصول هؤلاء التعساء إلى هذا المرفأ فوصف حالهم قائلًا: «إن العذاب الذى كابده هؤلاء اليهود يحرك المشاعر، فقد بدا عليهم الهِرَم والهزال حتى إن المرء يحسب أنهم أموات».

ولم يجد اليهود فى منفاهم فى أفريقيا أية راحة أو سلوى، فقرر الكثيرون منهم العودة إلى كستيلا، فكان اليهود مثل المستجير من الرمضاء بالنار، كذلك فضل الكثير منهم العودة إلى البرتغال، وهكذا تقلص عدد اليهود الذين غادروا إسپانيا والبرتغال بلا رجعة إلى نحو أربعين ألف يهودى.

وفى حين يؤكد بعض الدارسين أن الهدف من طرد اليهود كان الاستيلاء على ممتلكاتهم وثرواتهم، يذهب البعض إلى خلاف هذا ويدللون على سلامة رأيهم بأن اليهود المهاجرين من مالاجا وألميريا خرجوا منها وبحوزتهم مبالغ ضخمة من المال، فضلًا عن أن عددًا منهم تمكن من الخروج بمنقولاتهم الثمينة وجواهرهم، مثل الثرى إسحاق پيردونييل، الذى منحه آخر ملوك المسلمين فى غرناطة الحق فى اصطحاب ممتلكاته معه، وأيضًا سمحت السلطة الحاكمة للثرى اليهودى أبرافانيل وأسرته بأخذ ثرواتهم معهم، وكذا نجح بعض اليهود فى تهريب ثرواتهم عن طريق رشوة الحراس والموظفين. ونستدل على ذلك أيضًا من أن الحكومة قدمت فى عام ١٤٩٤ موظفًا فى مدينة سيوداد ريال للمحاكمة لأنه كان ينتزع مبالغ باهظة من اليهود للسماح لهم بالعبور إلى البرتغال، ولأنه سمح لبعضهم باصطحاب ذهبهم وفضتهم وبضائعهم المحظورة، والذى لا شك فيه أن المسيحيين الإسپان والبرتغاليين الذين استدانوا من اليهود استفادوا من التخلص من اليهود فى التهرب من دفع ما عليهم. وعلى أية حال يؤكد بعض المؤرخين أن السبب الجوهرى

الذى حدا بإسپانيا إلى طرد اليهود من أراضيها كان فى الأساس سببًا دينيًّا أكثر من كونه سببًا اقتصاديًّا، وكانت أملاك العائدين إلى الأراضى الإسپانية والمتحولين إلى النصرانية ترد إليهم. ويذكر التاريخ أن السلطة البرتغالية أرغمت موظفًا فى مدينة سيوداد ريال على رد بعض المنازل إلى صاحبها اليهودى المتحول إلى المسيحية لأنه استغل فرصة طرده واشتراها منه بأبخس الأثمان. فى عام ١٤٩٤ عاد إلى مدريد عدد من الأطباء اليهود المطرودين الذين تحولوا فيما بعد إلى المسيحية، فرحب بهم مجلس المدينة متمنيًّا قدوم المزيد منهم نظرًا لتميز اليهود فى مجال الطب.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هدف الملك فرديناند والملكة إيزابيلا من وراء طرد اليهود من إسپانيا لم يكن الخوف من حدوث صدع فى العقيدة الكاثوليكية.. وهم يؤكدون أن هذين الملكين لم يكونا على الصعيد الشخصى يحملان أية عداوة للسامية أو تحركهما الدوافع العنصرية، أكثر من هذا أنهما لم يحملا أية عداوة شخصية ضد المسلمين فى إسپانيا على الرغم من أنهم كانوا أكثر عددًا وأشد خطرًا من الأقليات اليهودية، بل إن دافعهما كان فى جوهره دافعًا دينيًّا بحتًا بدليل أن هذين الملكين أصدرا أمرهما إلى شعب جوييكا وشعب أوسما بعدم معايرة اليهود المتحولين إلى النصرانية بأنهم مخادعون أو منافقون. وبعد وفاة الملك فرديناند لم يخف الكثير من موظفيه وبعض أحبار بنى إسرائيل انتقادهم له بسبب طرده لليهود.

ويقول جيرونيمو دى زوريتا المفتش فى محاكم التفتيش الذى تولى تدوين حياة الملك فرديناند، إن الكثيرين كانوا يعيبون على الملك طرده لليهود. وهذا ما أكده مؤرخ محاكم التفتيش لويس دى بارامو بعض مضى قرن كامل على عملية الطرد، والجدير بالذكر أن موقف الملك فرديناند بعد عام ١٤٩٢ تأرجح بين الحظر والتسامح، كذلك تأرجح موقف ملوك إسپانيا من اليهود، ففى حين صدرت مراسيم بحظر طقوس العبادة اليهودية فى إسپانيا ومستعمراتها، نجد أن الملوك الإسپان يسعون إلى التخفيف من وطأة هذا الحظر فى أوائل القرن السادس عشر.. وفى ميلانو الإيطالية التى كانت تحت سيطرة الحكم الإسپانى لم يفرض الحظر فيها على العبادة اليهودية إلا بعد مضى قرن بأكمله على عام ١٤٩٢، وأيضًا مضى قرنان كاملان حتى فرض الحظر على الدين اليهودى فى أوران الخاضعة للحكم الإسپانى فى شمال أفريقيا، ومعنى هذا أن حظر الإسپان للدين اليهودى لم يكن عملًا منظمًا أو شاملًا، وأن السلطات الإسپانية كانت تسمح بممارسة شعائر الدين اليهودى لفترات طويلة فى أماكن متناثرة رغم فرض حظر عليها فى بعض المناطق الأخرى.

***

كانت إيزابيلا امرأة فاضلة تؤمن إيمانًا عميقًا بالعقيدة الكاثوليكية، فضلًا عن شدة إحساسها بالمسئولية والواجب، ومن ثم لم يكن من العسير إقناعها بضرورة إنشاء محاكم التفتيش كوسيلة لدعم كيان الدولة.

ولدت إيزابيلا فى ٢٢ أبريل عام ١٤٥١ فى مدينة مادريجال دى لاس أتلاس توريس فى جو يمور بالفوضى والاضطراب. فقد اتسم حكم والدها الملك جون الثانى بالضعف لدرجة أن الفوضى ضربت أطنابها فى منطقة كستيلا؛ حيث كان وجهاؤها يتصرفون بلا رابط أو ضابط وبدون أدنى إحساس بالمسئولية، وتفشت السرقة والاغتصاب على نحو هدد الشعب الفقير فى عرضه وماله القليل؛ مما حدا بالشرفاء إلى التفكير فى أنجح وسيلة لاستتباب الأمن وحفظ القانون فى البلاد. وللأسف كان الملك چون الثانى غافلًا لاهيًا ولعبة فى يد نبيل غير شرعى اسمه دى لونا ينحدر من أرفع عائلات أراجون وأسماها مقامًا. وكان هذا النبيل جذابًا للغاية يحب الموسيقى ويقرض الشعر مما راق فى عين الملك چون الثانى، فقام بتعيينه سيد سان چيمس الأعظم وحارس كستيلا، وكان طموح دى لونا ربيب الملك عظيمين، فاستغل ثقة الملك غير المحدودة فيه فاستولى على جانب كبير من ثروته وسلطاته، الأمر الذى أثار ضغينة بقية الأشراف ضده، حتى هنرى ابن الملك چون الثانى لم يتردد فى أن يقف فى وجه أبيه نتيجة لذلك، وبسبب مظالم دى لونا تألب وجهاء كستيلا عليه وعلقوه على حبل المشنقة.

اتخذ الملك چون الثانى لنفسه زوجة من إقليم أراجون تدعى ماريا وأنجب منها هنرى الذى صار وليًا للعهد، ثم تزوج للمرة الثانية من الأميرة إيزابيلا حفيدة ملك البرتغال، ثم أنجب الملك چون الثانى من زوجته الثانية ولدًا يدعى ألفونسو وابنة تدعى إيزابيلا. وعلى سرير الموت رجا الملك چون الثانى ابنه وولى عهده هنرى أن يرعى أخته إيزابيلا وأخاه ألفونسو غير الشقيق. وانكبت أم إيزابيلا على تربيتها وقامت بتنشئتها نشأة قوامها التقوى والورع.

وفى حين كانت إيزابيلا فتاة تقية وورعة كان أخوها هنرى، رغم ما أشيع عنه من عجز جنسى، شديد التهتك.

لقد وضع شعب كستيلا كل أمله فى هنرى؛ لأنه تمرد على والده الفاسد ظنًّا منه أن الابن أفضل من أبيه، ولكن اتضح له أن هنرى أسوأ من والده. فقد كرس الابن حياته للاستمتاع بأطايب الحياة الحسية دون أن يمتلك إحساس والده المرهف بالموسيقى والشعر. كان هنرى يحمل المقت الشديد لمسلمى إسبانيا القادمين من مراكش وشمال أفريقيا، غير أن حملاته عليهم استنفذت الكثير من

موارد الدولة. وحتى يتمتع هنرى بشعبية عريضة اتبع سياسة إغداق العطايا والهدايا على أصدقائه وأعدائه على حد سواء، فهو يسعى بهداياه إلى أن يخطب ود أعدائه ويكسر شوكتهم، فضلًا عن أنه كان يتيه حُبًّا بمظاهر الأبهة والعظمة فى الحياة العسكرية أكثر من حبه للقتال الفعلى، الأمر الذى أدى إلى عجزه عن الانتصار على جيوش المسلمين الذين كانوا يسخرون منه ويحتقرونه، حتى الجيش المسيحى الذى جنده لمحاربة المسلمين اتسم بالضعف والهزال، وبسبب عربدته ونزواته ومغامراته الجنسية منذ فجر شبابه، هجر زوجته بلانش من مملكة أراجون بعد زواج دام اثنى عشر عامًا. وبعد طلاقه من امرأته الأولى تزوج هذا الملك العربيد من أخت ألفونسو الخامس ملك البرتغال، ولكن هذا الزواج سرعان ما انتهى بفضيحة؛ حيث إن زوجته الثانية وقعت فى غرام أحد نبلاء البلاط اسمه بلتران دى لاكويفا، وأيضًا وقع زوجها فى غرام إحدى وصيفاتها، وأخذت هذه العشيقة تنازع الملكة فى سلطاتها، الأمر الذى أدى إلى عراكهما وشجارهما. والغريب أن هذا الجو المشحون بالمباذل والمفاسد لم يؤثر فى الفتاة إيزابيلا مطلقًا فقد ظلت تعيش مع أخيها ألفونسو فى هدوء وسكينة وفى طهر وصفاء ونقاء يكرسان وقتهما للصلاة والتعبد.

كان من الطبيعى أن يتولى أخوها ألفونسو أو تتولى هى أريكة الحكم بعد وفاة أخيها هنرى الذى لم ينجب ذرية، غير أن المفاجأة حدثت عندما وجدت زوجة هنرى الثانى نفسها حبلى، وسرت إشاعة فى البلاط أن الملكة لم تحمل من زوجها بل حملت من عشيقها بلتران دى لاكويفا. وأنجبت الملكة فتاة تدعى لابلترنيجا أصبحت ولية العرش فى مملكة كستيلا، ولم يسكت النبلاء والوجهاء على هذه الفضيحة فهم يرفضون أن تولى عليهم فتاة مشكوك فى نسبها، وخشى الملك هنرى من تمرد البلاط عليه وتولية أخيه ألفونسو أو أخته إيزابيلا على عرش كستيلا، ولهذا قام هنرى باستدعائهما ليعيشا معه تحت سقف واحد درءًا لخطرهما حتى يكونا تحت نظره ويتمكن من مراقبتهما، ولكن هنرى لم يتمكن من تهدئة ثائرة النبلاء عليه بعد أن اقترح أن يقوم أخوه ألفونسو بالزواج فيما بعد من ابنته بلترانيجا. وكان أشد الناس ثورة عليه چوان باتشيكو ماركيز فيلينا، الذى خشى من أن تؤدى سياسة هنرى إلى تقلص نفوذه وحظوته فى البلاط. ولهذا عقد هذا الماركيز العزم على عزل هنرى وتعيين ألفونسو خلفًا له، وقام الماركيز فيلينا عام ١٤٦٥ بإحضار ألفونسو إلى حقل قريب من مدينة أفيلا وإقامة منصة هناك، ووضع على المنصة دمية تشبه الملك هنرى وقد أحاطت به كل مظاهر الأبهة والعظمة والجلال، وجاء رئيس أساقفة توليدو (طليطلة) واسمه ألفونسو كارليلو (عم الماركيز فيلينا والمناصر له) وصعد إلى المنصة وأزاح التاج الملكى عن الدمية، ثم قام الماركيز فيلينا بتجريدها من كافة دلائل العظمة وقذف بها إلى جمهور الحاضرين

الذين أسعدهم تقاذفها وتمريغها فى التراب، وطلب من الصبى ألفونسو البالغ من العمر أحد عشر عامًا أن يعتلى المنصة ويجلس مكان الدمية التى تمثل الملك هنرى، ثم وضع التاج الملكى على رأسه وأدى إليه الواقفون فروض الطاعة والولاء فشاعت البهجة بين الجمهور الذى صاح مرحبًا بالملك الجديد.

ورغم هذا فإن هنرى لم يتحرك ضد المناوئين له بسبب ضعفه وتخاذله وإيثاره للسلامة، بالعكس سعى هنرى إلى أن يكسب عدوه فيلينا إلى جانبه عن طريق رشوته وإغداق الهدايا عليه. ورغبة فى استرضاء عدوه عرض هنرى على أخى فيلينا واسمه دون بدرو جيرون أن يتزوج من أخته إيزابيلا التى كانت فى السادسة عشرة من عمرها، ولكن إيزابيلا رفضت هذا الزواج بكل إباء وشمم. كانت إيزابيلا رغم تدينها الشديد لا تخلو من المطامع الدنيوية والسياسية وعلى رأسها رغبتها فى توحيد مملكة كستيلا مع مملكة أراجون؛ وتعللت فى رفضها الزواج من دون بدرو بضرورة استطلاع رأى أشراف كستيلا ونبلائها فى هذا الأمر فقد كانت إيزابيلا تعلم جيدًا حياة الفسق والمجون التى كان دون بدرو الذى يكبرها بعدة أعوام غارقًا لأذنيه فيها. ونظرًا لإدراكها بالعجز أمام أخيها هنرى فقد آثرت الانسحاب من حياة البلاط لتتوارى كسيرة النفس عميقة الحزن فى جناحها بالقصر، تواصل الصلاة وهى راكعة على ركبتيها كى يزيح عنها الله هذه الغمة. وازورت عن الطعام والنوم وطلبت من وصيفتها بيتويز دى بوباديلا أن تغمد خنجرًا فى قلب الفاسق دون بدرو إذا حاول الاقتراب منها، ولكن هنرى لم يكترث بتوسلاتها وبدا من المؤكد أن العريس دون بدرو سوف يظفر بها، ولكن شيئًا لم يكن فى الحسبان وقع، فقد سقط العريس مريضًا ولفظ أنفاسه الأخيرة فى غضون أربعة أيام عندما داهمه مرض غامض ومفاجئ أثناء سفره إلى مدريد، حيث من المزمع أن تتم إجراءات الزواج، ومن المحتمل أن يكون أحد المتعاطفين مع إيزابيلا قد دس له السم دون أن تعلم إيزابيلا بذلك. وعندما تحطمت طموحات عائلة دون بدرو فى التقرب من العائلة الملكية واعتلاء سدة الحكم، نشبت حرب أهلية طاحنة بينها وبين أعوان الملك هنرى، وانخرط الشاب ألفونسو أخو إيزابيلا فى هذه الحرب، ولكنه فى يوم ٥ يوليه ١٤٦٨ وُجد ميتًا على فراشه، ويحتمل أنه مات مسمومًا أو بسبب الطاعون المنتشر فى إسبانيا آنذاك. وبوفاته وبسبب الشك فى شرعية نسب بلترانيجا إلى أبيها الملك هنرى، أصبحت إيزابيلا هى الوحيدة المؤهلة لاعتلاء عرش كستيلا.

كانت إيزابيلا حينذاك فى نحو السابعة عشرة من عمرها وتتسم بالجدية التى لا تتناسب مع صغر سنها، كما كانت مدركة للأخطار المحدقة بها وببلادها، ولهذا آثرت أن تعود إلى حياة الدير

التى كانت تعيش فيه فى أفيلا، ولم تغادره إلا بعد أن هدأت حدة الجو المشحون بالنزاع والتوتر. ورغم صغر سنها كما أسلفنا فقد كانت على جانب عظيم من الحكمة والحنكة التى دفعتها إلى القول مرارًا وتكرارًا أنه لا يحق لها اعتلاء العرش ما دام شقيقها الملك على قيد الحياة، وأخيرًا زارها فى صومعتها فى الدير رئيس أساقفة توليدو (طليطلة)، الذى صرح بأنه يعتبرها ملكة كستيلا بعد وفاة أخيها ألفونسو، غير أن الفتاة عادت لتؤكد أن أخاها هو الأجدر بالعرش؛ لأنه لا يزال حيًّا يرزق، ولكنها بسبب شدة تدينها تطلعت إلى تطهير البلاد من الفسق والفجور وإلى أن يسودها السلام والوئام.

ثم قام هنرى بتطليق زوجته البرتغالية الماجنة وأعادها إلى بلادها، وهكذا أصبحت إيزابيلا وريثة عرش كستيلا المحتملة بعد وفاة شقيقها هنرى الذى تعهد أخيرًا بعدم إجبارها على الزواج بدون موافقتها، غير أنه طلب منها ألا تتزوج بدون أخذ رأيه، وكثر خُطَّابها فتقدم إلى الزواج منها أخو ملك إنجلترا إدوارد الرابع، ودوق جلوستر الذى صار فيما بعد الملك ريتشارد الثالث، ولكن إيزابيلا كانت كما ذكرنا تحلم بتوحيد مملكتى كاستيل وأراجون، الأمر الذى جعلها ترحب بالزواج من فرديناند أمير أراجون، وشاءت الأقدار أن تتحقق رغبتها، وبعد زواجها نجح الاثنان فى طرد المسلمين من آخر معاقلهم فى إسبانيا.

والجدير بالذكر أن رحلة كريستوفر كولمبوس لاكتشاف القارة الأمريكية تمت تحت رعاية الملكة إيزابيلا، والجدير بالذكر أيضًا أن فرص فرديناند فى اعتلاء سدة الحكم فى بلده أراجون كانت ضئيلة؛ حيث إنه كان له شقيق وشقيقتان يكبرونه فى السن، هم كارلوس وبلانش وليونورا، ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يؤول الحكم إليه. وبالنظر إلى أن زواج فرديناند من إيزابيلا تعارض مع مطامع فيلينا الذى رفضت إيزابيلا الاقتران به، فإنه سعى قدر استطاعته إلى وضع العراقيل أمام زواجهما، كما أنه أعلن عن تأييده لابنة هنرى لا بلترانيجا المشكوك فى نسبها، غير أن الشعب كان شديد التعاطف مع إيزابيلا وأظهر تحمسًا كبيرًا لزواجها من فرديناند. وكان من حسن حظ إيزابيلا أن أخاها هنرى اضطر إلى السفر إلى جنوب إسبانيا لخوض الحرب ضد أعدائه هناك، وأيضًا اضطر فيلينا إلى السفر معه إلى الجنوب، الأمر الذى أتاح لها فرصة الترحال من أوكافيا إلى مادريجال للتعجيل بإتمام إجراءات زواجها من فرديناند، غير أن أخاها هنرى وفيلينا الموتور لم يتركاها لحالها فقد تعقباها إلى مادريجال وزرعوا الجواسيس من حولها، بل إن فيلينا أرسل قواته للقبض على إيزابيلا وإعادتها إليه بالقوة، ولكن قائد القوات البحرية فى كستيلا وجد فرديناند فى الوقت نفسه رحب بإتمام هذا الزواج على وجه السرعة، وكذلك كان رئيس أساقفة طليطلة موافقًا على هذا الزواج.

ولما نما إلى علم هذين الرجلين أن قوات فيلينا فى طريقها للقبض على إيزابيلا سارعا بالسفر سرًّا لتحذيرها من الخطر الذى يحيق بها، وطلبا منها مغادرة المكان على الفور، وحين وصلت القوات المعادية إلى القصر كانت إيزابيلا قد لاذت بالفرار منه.

وأخيرًا سافر فرديناند البالغ من العمر آنذاك ثمانية عشر عامًا إلى مملكة كستيلا فى الخفاء، حيث عقد زفافه على إيزابيلا البالغة من العمر تسعة عشر ربيعًا، وكان العروسان خاليى الوفاض فاقترضا مالًا من المعارف والأصدقاء لإقامة حفل الزفاف، وكانت الزوجة أشد ما تكون سعادة بزوجها، فقد كان وسيمًا يفيض بالحيوية والشباب. وتم الزواج فى ١٩ أكتوبر ١٤٦٩ فى قصر يملكه چون دى فيفرو فى بلد الوليد (فالادوليد)؛ حيث كانت إيزابيلا تقيم، وبمجرد الانتهاء من مراسم الزواج قام العروسان بإبلاغ هنرى بالنبأ فامتنع عن تقديم التهنئة إليهما. وحتى يضع هنرى العراقيل أمام أخته إيزابيلا فى اعتلاء عرش كستيلا أعلن أن ابنته بلترانيجا ابنة شرعية وليس هناك غبار على نسبها، وكذلك أكدت أمها البرتغالية صحة نسبها، وأيضًا لجأ هنرى إلى المناورة على تزويج ابنته المشكوك فى نسبها إلى أخى ملك فرنسا لويس الحادى عشر هادفًا من وراء ذلك كسب تأييد الفرنسيين لابنته عندما تصير ملكة على كستيلا بعد إزاحة أخته من الطريق. ورغم كل هذه المؤامرات التى حاكها هنرى ضد أخته إيزابيلا، فقد ظلت على عهدها هادئة ومتماسكة ووقورة تتصرف بحكمة وورع، الأمر الذى زاد من شعبيتها بين عامة الناس. وعاش الزوجان فرديناند وإيزابيلا فى شظف وعوز واعتمدا فى معاشهما على الاقتراض من الأحباء والأصدقاء. أما الحياة فى كستيلا فكانت تنضح بالفساد واختفى منها الأمان وشاع القتل والسرقة والاغتصاب.

وفى ديسمبر عام ١٤٧٣ تم صلح بين الملك هنرى وأخته إيزابيلا، وأقام المآدب لتكريمها، ولكن سرعان ما داهمه المرض فعزا مرضه إلى محاولة من جانب أعوان أخته إيزابيلا لدس السم له، ولهذا قلب الأخ لأخته ظهر المجن وقرر القبض عليها، ولكن المنية لم تمهله فقد توفى فى ديسمبر عام ١٤٧٤، وأيضًا مات عدوها اللدود فيلينا مما زاد من تحسن ظروفها. وكانت مملكة كستيلا فى أسوأ حالاتها بسبب تمزقها نتيجة النزاع والصراع والحروب الأهلية، فضلًا عن أنها على شفا الإفلاس إن لم تكن قد أفلست بالفعل.

وبموت الملك هنرى أصبح هناك وريثتان محتملتان، ابنته المشكوك فى نسبها إليه، وأخته إيزابيلا المحبوبة من الشعب والمعروفة بشدة تقواها، ولكن أريكة الملك كانت فى نهاية المطاف من نصيب إيزابيلا، ولما علم زوجها فرديناند بأمر اعتلائها العرش جاء من أراجون على وجه السرعة كى يلحق بها، وتناقش الزوجان فى أمر الحكم، فعبر فرديناند عن رغبته فى أن تكون مقاليد

الأمور فى يده، ولكن زوجته أصرت على أن تكون الحاكمة لأن هذا حقها المشروع، وبعد أن احتدم النقاش طويلًا وافق زوجها على أن تكون الحاكمة الفعلية لمملكة كستيلا وألا يجد غضاضة فى أن يستمد سلطاته منها، فهما متحابان ومصلحتهما المشتركة تقتضى منهما رعاية وليدتهما إيزابيلا التى سميت باسم والدتها التى ولدتها فى مدينة ديونياس عام ١٤٧٠، واستجاب فرديناند لصوت العقل والحكمة فوافق على ذلك.

لم يكن الطريق أمام الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند سهلًا أو ميسورًا، فقد اعترض على ملكهما المؤيدون لابنة هنرى بلترانيجا المشكوك فى نسبها، وكان ألد أعداء إيزابيلا والمناوئين لها رجل عسكرى محنك هو الماركيز فيلينا ابن عدوها اللدود، وأيضًا غدر رئيس أساقفة طليطلة بإيزابيلا عندما أدرك أنها لن تعطيه الحظوة التى يطمع فيها، ولكن أكثر أعداء إيزابيلا عنفًا وضراوة كان ألفونسو الخامس ملك البرتغال الذى كان يطمع فى أن يضم كستيلا إلى أراضيه، فضلًا عن أنه لم ينس قط إهانة إيزابيلا له عندما رفضت أن تتزوجه، ورغبة منه فى الانتقام منها ساند ألفونسو الخامس غريمتها بلترانيجا التى خطط للزواج منها والزحف بقواته للاستيلاء على مملكة كستيلا، وبالفعل شن ألفونسو الخامس هجومًا عسكريًّا على إيزابيلا وفرديناند وتمكن من دخول كستيلا فى مايو عام ١٤٨٥ ليجد ترحيبًا من فيلينا عدو إيزابيلا اللدود. وتقدم ملك البرتغال الظافر لخطبة بلترانيجا واستخدم ألفونسو الخامس نفوذه لدى البابا كى يوافق على هذا الزواج، وتم الإعلان بأنه وعروسه هما حاكما كستيلا الشرعيان، واستمر هذا الصراع المسلح لمدة أربعة أعوام، ولكنه انتهى بانتصار إيزابيلا وفرديناند على أعدائهما الذين أرادوا إزاحتهما من العرش فى معركة حاسمة بالقرب من مدينة تورو، وبعد هزيمته وانكساره أعلن ألفونسو أنه نادم وأنه سيكفر عن ذنوبه بالترحال إلى الأراضى المقدسة، كما أنه أعلن تنازله للعرش لصالح ابنه چون، ولكن ما لبث أن تراجع عن أقواله وعن تنازله عن العرش وقام بحشد قواته مرة أخرى لمهاجمة كستيلا، ولكن خالة إيزابيلا التى كانت زوجة أخى ألفونسو توسطت حتى استطاعت إقناع المتنازعين بعقد معاهدة صلح بين الأطراف المتنازعة، غير أن إيزابيلا وزوجها فرديناند اشترطا على ألفونسو التعهد بعدم الاعتداء على كستيلا فى المستقبل، وفسخ خطبته بلترانيجا، وأخذ تعهد عليها بعدم المطالبة بعرش كستيلا فى المستقبل.

ومات والد فرديناند فورث الابن عنه حكم مملكة أراجون، وهكذا توحدت مملكة كستيلا التى تحكمها إيزابيلا ومملكة أراجون التى آلت بالوراثة إلى فرديناند، وقرر الاثنان أن يكرسا جهودهما لإعادة النظام إلى بلادهما التى دمرتها الحروب. وحتى يستتب الأمن فى البلاد أنشأت

إيزابيلا جهازًا عسكريًّا أطلقت عليه اسم «الأخوة المقدسة» هدفه حماية أمن المواطنين والحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم، والتصدى لجرائم قطع الطريق والسرقة والاغتصاب وغيرها من الجرائم. وفى بادئ الأمر فرضت إيزابيلا ضرائب على أصحاب البيوت للصرف على هذه القوة العسكرية التى تحولت إلى جهاز شرطة يصون أمن المواطنين، وطبقت الآفاق سمعة إيزابيلا الحسنة فأطلق عليها شعبها اسم الملكة الطيبة.

هذه هى قصة إيزابيلا التقية الورعة التى نشأ فى عهدها أفظع وأبشع نظام عرفته الإنسانية فى القرون الوسطى والمعروف باسم «محاكم التفتيش»، والجدير بالذكر أنه سبق لهذه السيدة الفاضلة أنها أقسمت فى شبابها لكاهن اعترافها، توماس دى توركويمادا، أنها سوف تنذر حياتها لاجتثاث الهرطقة من جذورها من أجل مجد الله ومجد الديانة الكاثوليكية، ولم يمض على اعتلاء إيزابيلا العرش وقت حتى جاءها من يذكرها بالعهد الذى قطعته على نفسها فى شبابها.

***

فكرة إعدام المهرطقين ليست جديدة على الدين المسيحى، ففى عام ٣٨٥ قام الإمبراطور المسيحى الورع ماكسيموس بتعذيب وإعدام المهرطق برسبليان وعدد من أتباعه. ثم تبعه الإمبراطور جستينيان (٤٨٣ ـ ٥٦٢)؛ ليفعل نفس الشىء ويصدر مجموعة من القوانين الخاصة بإعدام أنواع معينة من المهرطقين، وفى القرن الثالث عشر انتشرت فى جنوب فرنسا حركة مهرطقة قوية تعرف بـ «الألبيجنسيين» شنت الكنيسة الكاثوليكية الحرب ضدها فى الفترة من ١٢٠٩ حتى ١٢٤٤ بغية القضاء عليها، ولكنها لم تنجح فى استئصال شأفتها، فقد اختبأت هذه الحركة المهرطقة تحت الأرض تجنبًا لخسف الكنيسة واضطهادها. ومن ثم نشأت فكرة إقامة جهاز متخصص ومؤهل لاستئصال الهرطقة.

ولكن من الخطأ أن نظن أن الكنيسة قبل إنشاء محاكم التفتيش لم تكن لديها وسائلها لمحاربة الهرطقة، فقد كانت هناك فى كل أسقفية محكمة كنسية روحية للتصدى لأية هرطقة قد تنشأ. ورغم أن الأساقفة أنيط بهم تعقب الهرطقات وملاحقة المهرطقين، فإنهم كانوا يفعلون هذا فيما ندر، وبدا من الواضح أن تعقب المهرطقين بحاجة إلى إنشاء جهاز مكون من أناس مؤهلين للاضطلاع بهذه المهمة، ولهذا السبب أنشأ البابا فى روما بالتدريج جهازًا يعرف باسم «محاكم التفتيش». ويرجع الفضل فى إنشاء هذا الجهاز إلى طائفتى الرهبان المعروفتين باسمى الدومينيكان والفرنسيسكان، وأصبح من الواضح أن هذه المحاكم أكثر كفاءة فى عملها من المحاكم الروحية أو المحاكم الأسقفية

العادية.. وفى نهاية القرن الثالث عشر استطاعت محاكم التفتيش فى أوروبا أن تصبح فى منتهى الكفاءة والاقتدار من حيث قدرتها على ملاحقة المهرطقين وإنزال أشد العقاب بهم، وكانت محاكم التفتيش تعمل باستقلال عن المحاكم الروحية، ورغم أن الكنيسة عارضت استخدام التعذيب، فإن بابا روما أصدر فى عام ١٢٥٢ مرسومًا يسمح رسميًّا باستخدامه. والجدير بالذكر أن محاكم التفتيش انتشرت فى جميع أرجاء القارة الأوروبية باستثناء بلدين هما ألمانيا وإنجلترا. ففى إنجلترا مثلًا تكفلت التشريعات وتكفل القانون العام الصادر عن البرلمان بمهمة إحراق المهرطقين، ومعنى ذلك أن صلاحية قوة محاكم التفتيش اختلفت من دولة أوروبية إلى دولة أخرى، ولكن من المؤكد أن محاكم التفتيش الإسپانية كانت أكثرها فظاعة وأشدها بثًّا للرعب والترويع.

كان بدرو الثانى ملك أراجون أول من استن تشريعًا عام ١١٩٧ يقضى بحرق المهرطقين، وفى أوائل القرن الثالث عشر اشتهر جايم الأول بإنزال العقوبات المغلظة عليهم. ففى عهده تأسست فى مملكة أراجون أول محكمة تفتيش، ولكن نشاطها لم يتضح للعيان إلا فى القرن الرابع عشر عندما تحركت لمعاقبة بعض الرهبان الفرنسيسكان المنشقين على السلطة البابوية، فضلًا عن معاقبة اليهود والمسلمين الذين تظاهروا بالتحول إلى الدين المسيحى.

ولكن عندما اعتلى كليمنت السادس كرسى البابوية عام ١٣٤٢ اتخذ موقفًا فى صالح اليهود حين رأى ألمانيا تخيرهم بين الموت واعتناق العقيدة المسيحية. فقد قام بفرض الحرمان الكنسى على المعتدين على اليهود، كما أن رودريجو بورجيا، الذى تولى كرسى البابوية فى عام ١٤٩٢ حتى ١٥٠٣ رحب فى روما باستقبال اليهود المطرودين من إسپانيا ووفر لهم عيشة آمنة وسالمة، ولم يكن ترحيبه بهم راجعًا إلى العطف عليهم بل طمعًا فى الاستفادة من ثرواتهم.

وفى إسپانيا ألقى رجل الدين المسيحى فرانت مارتينيز فى عقدى السبعينيات والثمانينيات فى القرن الرابع عشر سلسلة من الخطب النارية التى أشعلت لهيب الكراهية ضد اليهود، الأمر الذى أدى إلى تعرضهم للمجازر فى كل من كاتالونيا وأراجون وكستيلا، ولكن رئيس أساقفة إشبيلية اعترض على تحريضه ولامه لومًا شديدًا وحذره من مغبة هذا التحريض؛ لأنه كان يدرك الفوائد الناجمة عن وجود اليهود، ولكن مارتينيز لم يكترث مطلقًا لتحذيره أو لتقريع البابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٤)، بل ظل سادرًا فى تهييج الشعب الإسپانى ضد اليهود. فقام رئيس أساقفة إشبيلية بتقديمه لمحكمة كنسية (وهى محكمة دينية تختلف عن محاكم التفتيش) للتحقيق معه، غير أن المصادفة وحدها شاءت أن يموت رئيس أساقفة إشبيلية، فاعتبر الشعب موته أمارة على خطأه وصواب غريمه مارتينيز، الذى واصل نفث سمومه ضد اليهود، الأمر الذى أثار الغوغاء عليهم

وجعلهم يقومون بسلبهم ونهبهم والاعتداء على حياتهم وممتلكاتهم. وقتل فى إشبيلية وحدها أربعة آلاف يهودى، ويقدر عدد الإسبان الذين راحوا ضحية أعمال الشغب بخمسين ألف يهودى.

وفى عام ١٤٦٠ نشر راهب فرنسيسكانى يدعى ألونسو دى سبينيا وثيقة لفت فيها الأنظار إلى الشرور التى يقترفها اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية. وشن دى سبينيا هجومًا ضاريًّا عليهم، رغم أنه كان هو نفسه واحدًا من اليهود المتحولين إلى المسيحية، ولعله أراد بذلك أن يدرأ هجوم المسيحيين عليه. والجدير بالذكر أن هذا الراهب دافع بقوة عن ضرورة إنشاء محكمة تفتيش فى مملكة كستيلا لمحاكمة اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية فى حين أنهم يضمرون الولاء للدين اليهودى فى قرارة قلوبهم، وبادر الرهبان الفرنسيسكان بتأييده، والغريب أن مملكة كستيلا لم تكن البادئة بإنشاء محكمة التفتيش رغم الأمر الذى أصدره البابا سكستوس الرابع ١٤٧٤ بإقامتها.

ولعل السبب فى هذا يرجع إلى ضآلة عدد المهرطقين فى كستيلا، مما دفع الأساقفة إلى الاعتقاد بأنه بالإمكان وضع حد للهرطقة فيها دون الحاجة إلى إنشاء محاكم تفتيش، وعقدت ممالك كتالونيا وبلنسية وأراجون وناڤار اجتماعًا لدراسة الأمر البابوى بإنشاء محكمة تفتيش فى مملكة كستيلا بحجة أن تظاهر اليهود باعتناق المسيحية أشد خطرًا على الدين المسيحى من الهرطقة، فاليهود فى رأيه هم الذين ينشرون الطاعون ويسممون الآبار ويخطفون الأطفال المسيحيين ويصلبونهم مثلما حدث فى بلد الوليد وزامورا. وتنقل ألونسو دى سبينيا بين أرجاء إسپانيا لإلقاء خطبه الملتهبة ضد اليهود المتحولين إلى النصرانية محذرًا الناس من خطرهم، فضلًا عما سطره من كتابات تحريضية فى هذا الشأن. وألح دى سبينيا على الحاجة إلى إنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا، ومن الناحية الرسمية لم تكن محكمة التفتيش مختصة بالنظر فى شئون اليهود، اللهم إلا إذا تحولوا إلى الدين المسيحى، فواجب محاكم التفتيش الأول والأخير هو محاربة الهرطقة وليس محاربة الدين اليهودى.

ورغم هذا الإلحاح على إنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا فإن إيزابيلا ملكة كستيلا كانت لا ترغب فى ذلك؛ لأنها لا تريد الخضوع إلى السلطة البابوية فى روما.

والجدير بالذكر أن علاقتها ببابا روما آنذاك سكستوس الرابع اتسمت بالتوتر والخلافات المستمرة، ولأن هذا البابا اتسم بالمحسوبية، فإنه كثيرًا ما تجاهل رغبات الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند فى تعيين مرشحيهما لشغل بعض الوظائف الدينية الشاغرة فى كونيكا وسرقسطة وتاراجونا، وعين أقاربه وأصدقاءه. وعبثًا طلب فرديناند وإيزابيلا من البابا إلغاء تعييناته، فقد رفض قائلًا: «إن

الله منحه هذه السلطة وليس لأحد أن يعترض عليها». وبلغ الغضب بالملك والملكة حدًّا جعلهما يستدعيان سفيرهما فى الفاتيكان ويأمران رعاياهما الإسپان بمغادرة روما، غير أن البابا لم يرضخ لطلبات الملكين إلا بعد أن هدداه بالدعوة إلى عقد مجمع لمناقشة حدود السلطة البابوية وهو ما أراد البابا سكستوس الرابع تفاديه بسبب غرقه فى المحسوبية والفساد. وبطبيعة الحال كان لهذا البابا أعوان فى كستيلا، وخشيت إيزابيلا من نفوذ الفاتيكان على أتباعه من رجال الكنيسة فى كستيلا، الأمر الذى جعلها تتصرف بحذر وتتحسس طريقها. ورغم اعتراضه على إقامة محاكم تفتيش فى مملكة كستيلا خوفًا من تغلغل نفوذ البابا فى شئونها، فقد طلب راهب إشبيلية الدومينيكانى البارز ألوسيو دى أوجيدا مقابلة الملكة ورجاها أن تضع حدًّا لانتشار الممارسات اليهودية بين اليهود المتحولين إلى المسيحية قائلًا إن السبيل إلى تحقيق ذلك هو إقامة محكمة تفتيش.

ولم يبد على الملكة الاقتناع بوجهة نظره، فقد أُغرمت باليهود المتحولين إلى النصرانية وعينت كثيرين منهم فى بلاطها، فضلًا عن أنها كانت تعلم سلفًا أن الحسد من اليهود كان فى كثير من الأحيان السبب فى تحامل المسيحيين عليهم. وأيدها فى هذا الموقف المتعاطف مع اليهود المتنصرين دون بدرو جونزاليس دى مندوزا، الذى كان يشغل رتبة كاردينال إسپانيا ورئيس أساقفة إشبيلية. واعترض هذا الرجل على إنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا، ونصح الملكة إيزابيلا بعدم الموافقة عليها، وبالفعل استجابت إيزابيلا لنصيحته وأعرضت عن نصيحة أوجيدا. وحدث أن وصل إلى إسپانيا فى ذلك الوقت كبير المحققين فى محكمة تفتيش صقلية واسمه فيليپو دى باوبرى، الذى انتصر لرأى أوجيدا الداعى لإنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا، ولكن بات من الواضح للرجلين أنهما سوف يفشلان فى إقناع إيزابيلا بوجهة نظرهما، ومن ثم صمما على التوجه إلى الملك فرديناند لمحاولة التأثير عليه عن طريق التلميح إلى استحواذه على ثروات اليهود. ورغم شدة ورعها فإن إيزابيلا رفضت تدخل زوجها فى شئون مملكتها، ولهذا اكتفت باستدعاء رئيس أساقفة إشبيلية وأمرته بمراقبة تصرفات اليهود المتحولين إلى النصرانية ومنعهم من ممارسة شعائر دينهم الأصلى. واستشاط المؤيدون لإنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا غضبًا لإدراكهم تساهل رئيس أساقفة إشبيلية وتراخيه، غير أن الرجل سعى جاهدًا للحيلولة دون ممارسة اليهود المتنصرين طقوس دينهم القديم، واعتبرت إيزابيلا أنها قد أدت بذلك واجبها نحو دينها وكنيستها.

غير أن حادثة تافهة جعلتها تغير رأيها الرافض لفكرة إنشاء محكمة تفتيش فى كستيلا، وتتلخص هذه الحادثة العابرة فى أن نبيلًا شابًّا مسيحيًّا من عائلة جوزمان العريقة اتخذ فتاة يهودية من عائلة تحولت إلى المسيحية عشيقة له، واعتاد هذا الشاب أن يزور عشيقته فى حجرتها دون علم

أهلها، وفى إحدى زياراته لها فى ١٨ مارس ١٤٧٨ إبان أسبوع الآلام المقدس الموافق عشية عيد الفصح عند اليهود، وبينما الشاب يواقع الفتاة، إذا به يسمع جلبة كبيرة وأناسًا كثيرين يروحون ويجيئون أسفل الحجرة.. وخشيت الفتاة أن يفتضح أمرها فحاولت تهريب عشيقها خارج المنزل دون أن يراه أحد، ولكن الفرصة لم تسنح لها فخبأته فى دولاب، وبينما كان العاشق مختبئًا سمع والد الفتاة وأصدقاءه وقد اقتربوا من مخبئه يتحدثون، وفهم من حديثهم أنهم قد تحولوا إلى النصرانية حديثًا، وأنهم فى حقيقة الأمر قد اجتمعوا للاحتفال بعيد الفصح اليهودى، وأصاب الرعب الشاب المسيحى عندما اكتشف أن هذه العائلة اليهودية تتظاهر بالمسيحية، وبمجرد أن تمكن الشاب من الهرب من منزل عشيقته، قام على الفور بالتبليغ عنها. وتهلل أوجيدا وفرح وألقى القبض على جميع الحاضرين فى منزل العشيقة، فاعترفوا بذنبهم وطلبوا من الكنيسة الصفح والغفران، وكان من حسن حظهم أن محكمة التفتيش لم تكن قد أنشئت بعد فى كستيلا وغفرت لهم الكنيسة خطاياهم وعاقبتهم بأداء بعض فروض التوبة.

واغتنم رجل الدين أوجيدا هذه الفرصة السانحة فسافر على الفور إلى قرطبة ليقابل الملك والملكة، ولكنه طلب مقابلة الراهب توماس دى توركويمادا قبل الالتقاء بإيزابيلا وزوجها وروى له قصة العائلة اليهودية التى اعتنقت النصرانية، ولكنها لا تزال تمارس طقوس الدين اليهودى سرًّا، وذهل توركويمادا من هول الصدمة أكثر من اهتمامه بارتكاب الشاب المسيحى لجريمة الزنا، وبلغ انفعاله مبلغًا جعله يرافق أوجيدا عند مقابلة الملك والملكة، وفى حضرتهما أيد توركويمادا مطلب أوجيدا بضرورة إنشاء محكمة تفتيش على وجه السرعة حماية للكنيسة والعقيدة الكاثوليكية.

ورأى الملك فرديناند أن إنشاء محكمة تفتيش فى صالحه حتى وإن أدى ذلك إلى زيادة النفوذ البابوى فى بلاده، وتمكن من إقناع زوجته إيزابيلا بذلك، ومن ثم طلب الاثنان من البابا سكستوس الرابع إنشاء محكمة تفتيش فى مملكة كستيلا واستجاب البابا لطلبهما فى نوفمبر ١٤٧٨، ولكن هذه المحكمة ظلت عاطلة عن العمل لمدة عامين. ويُرجع بعض المؤرخين إحجام إيزابيلا عن استخدامها إلى طيبة قلبها وتقواها وعدم رغبتها فى إلحاق الأذى والعذاب برعيتها، فى حين يرى مؤرخون آخرون أن إحجامها عن استخدام محكمة التفتيش يرجع إلى النزاع الشديد الذى احتدم بينها وبين البابا حول أحقيتها فى اتخاذ القرار بشأن ممتلكات المهرطقين المصادرة؛ حيث إنها رأت أنه ليس من حق البابا أن يتدخل فيها أو يستولى عليها، وبعد لأى أجابها البابا إلى طلبها. وربما أحجمت إيزابيلا عن استخدام محاكم التفتيش لأنها كانت ترغب فى إقامة السلام فى ربوع بلادها التى فرقتها المنازعات وسياسة والدها وأخيها هنرى الخرقاء.

وفى ربيع عام ١٤٨٠ سافر فرديناند (الذى ورث تاج أراجون) وزوجته ملكة كستيلا إلى طليطلة حيث كان البرلمان مجتمعًا، وكان غرضهما من هذه الزيارة هو الحصول على قسم البرلمان بالولاء لابنهما وولى العهد چوان أمير أستورياس البالغ من العمر نحو سنتين، وأيضًا ناقش البرلمان القوانين الخاصة بوضع اليهود المرتدين التى أهملت ولم توضع موضع التنفيذ، واتخذ قرارًا بضرورة تنفيذها. وتقضى هذه القوانين بلبس اليهود شارة حمراء تميزهم عن المسيحيين، وأنه لا يحق لهم ممارسة المهن المحظورة عليهم، وتلك إجراءات طفيفة بالنسبة لما كانت محاكم التفتيش تفعله، وانتهز هذه المناسبة يهودى فكتب نبذة دافع فيها بحرارة عن اليهود، ولكنه من فرط تحمسه لهم سطر بعض الهرطقات التى ما إن رآها هرناندو دى تالافيرا الراهب الذى صار رئيس أساقفة غرناطة حتى ثارت ثائرته. وعندما عرض الأمر على الملكة أخذت تضيق ذرعًا بتصرفات اليهود وتأخذ خطوات فعلية لقمعها. وأمرت الملكة فى سبتمبر ١٤٨٠ الكاردينال ميندوزا وتوماس توركويمادا بترشيح محققين لتعيينهم فى محكمة التفتيش. وبالنظر إلى أن الهرطقة كانت أكثر انتشارًا وأوسع نطاقًا فى إشبيلية، فقد تم تعيين الراهبين الدومينيكان ميجويل موريلو، وچوان دى سانت مارتينو محققين فى محكمتها.

ووصل المحققون فى محكمة التفتيش فى موكب وقد ارتدوا أرديتهم البيضاء وأغطية وجوههم السوداء يصاحبهم رهط من الرهبان المألوفين (انظر كتابى «محاكم التفتيش» ـ دار الهلال، ٢٠٠١).

كان منظرهم مخيف «يخلع» القلوب ويبث الرعب فى الأفئدة، وسار الرهبان الدومينيكان فى شوارع إشبيلية كعادتهم حفاة الأقدام ولابسين أخشن الملابس، وفى مقدمتهم راهب دومينيكانى يحمل الصليب. واتجه الموكب فى صمت رهيب صوب دير القديس لتبدأ محكمة التفتيش عملها المروع، وكان عدد كبير من اليهود المرتدين عن المسيحية قد فروا من إشبيلية ولاذوا بضياع عدد من النبلاء والوجهاء مثل الدوق مدينا سيودينا، وكان فرارهم خطوة غير حكيمة من جانبهم؛ لأنه أثار شكوك المحققين فيهم. وأصدر المحققون أوامرهم إلى هذا الدوق وإلى الماركيز كاديز بالتبليغ عن أسماء جميع اليهود اللائذين بهما وإلقاء القبض عليهم وتسليمهم إلى محكمة التفتيش للتحقيق معهم. وقال المحققون إن من يوفر الحماية للمهرطقين يعتبر شريكًا لهم فى الهرطقة، إلى جانب التهديد بفرض الحرمان الكنسى على كل من يعصى أوامرهم، وخشى النبلاء على أنفسهم فقاموا بتسليم المستجيرين بهم إلى المحققين الذين ألقوا بهم فى غياهب السجون. ولم يفهم سكان إشبيلية حقيقة ما حدث لأنهم اعتادوا عدم تطبيق القوانين على اليهود الذين تمتعوا بفترات طويلة

من الهدوء والاستقرار والرخاء فى هذه المدينة على وجه الخصوص، مثل الثرى دييجو دى سوزان. ودعا دييجو دى سوزان وجهاء اليهود إلى عقد اجتماع فى كنيسة سالفادور فى إشبيلية التى دأب اليهود المتحولون إلى الدين المسيحى (المارانو) على إقامة الصلاة فيها، وهدد اليهود المجتمعون بإثارة المتاعب والقلاقل ضد محكمة التفتيش إذا حاولت أن تمسهم بسوء، وارتفع صوت يهودى عجوز كان حاضرًا الاجتماع لتنبيه بنى جلدته إلى المشاكل التى سوف تنجم عن المقاومة، لكن اليهود المجتمعين تجاهلوا تحذيره، بل إنهم من فرط تحمسهم واحتجاجهم هددوا المسيحيين باستخدام القوة والسلاح.

ولكن السلطات فى إشبيلية ما لبثت أن عرفت ما يزمع هؤلاء اليهود فعله، وكان لكبيرهم دييجو دى سوزان ابنة آية فى الحسن والجمال، وفى لحظة الضعف العاطفى أفشت هذه الفتاة لحبيبها الأرستقراطى المسيحى بأمر هذه المكيدة، فقام هذا الحبيب بتبليغ محكمة التفتيش بالتمرد اليهودى المزمع بدافع من الولاء للكنيسة. وكانت فرصة ذهبية أمام محكمة التفتيش للانقضاض على صفوة رجال المال والأعمال اليهود دفعة واحدة، فقبضت عليهم وقدمتهم إلى المحاكمة على جناح السرعة، وصدرت عليهم أحكام بالإعدام، وكان الحكم الصادر بإعدام أى مهرطق يسمى عملًا إيمانيًّا. وقد صدرت أولى الأعمال الإيمانية فى مدينة إشبيلية يوم ٦ فبراير ١٤٨١، فقضت بإحراق ستة رجال ونساء وهم أحياء، وعقب صدور هذا الحكم وقف ألونسو دى هوجيدا ليلقى موعظته بهذه المناسبة؛ حيث جرت العادة أن يقوم الكاهن بإلقاء كلمة عقب إصدار محكمة التفتيش أحكامها على المهرطقين، غير أن القدر شاء أن يفقد هوجيدا حياته فى وباء الطاعون الذى اجتاح مدينة إشبيلية ليحصد حياة خمسة عشر ألفًا من سكانها.

ثم أصدرت محكمة التفتيش حكمها بإعدام ثلاثة أشخاص حرقًا على رأسهم اليهودى المتآمر دييجو دى سوزان، وتقدم هذا الرجل من خشبة الحرق بكل ثبات ورباطة جأش، وكان الحبل الملتف حول رقبته يتدلى فى الطين فطلب بكل أدب وتهذيب من أحد الواقفين المتفرجين أن يرفعه من الطين، وأقيم خارج مدينة إشبيلية معسكر متخصص للحرق يعرف بكامبو دى تايلادا.

واضطلع كاهن محلى اسمه ميزا بتزيين وزخرفة مكان الحرق، فكافأته الكنيسة بتعيينه المسئول عن تلقى الأموال والممتلكات المصادرة. وبعد حرق والدها المتمرد المتآمر، عانت سوزان الجميلة من الفاقة والعوز، فأشفق عليها رينولد دو روميرو أسقف تيبرياس وأدخلها أحد الأديرة، ولكن حياة الرهبنة لم تناسبها أو تروق لها فهربت من الدير لتلقى بنفسها فى أحضان عشاقها الكثيرين، وفى نهاية المطاف ارتمت فى أحضان بقال كان آخر عشاقها، ثم ماتت فى فقر مدقع، وبينما هى فى

النزع الأخير أوصت المحيطين بها أن يعلقوا جمجمتها على البيت الذى شاهد غدرها وخيانتها وحياتها المتهتكة الفاسقة، وتقول الأساطير إن أناتها وصرخات الندم على خيانتها واعوجاج سلوكها لا تزال تسمع فى جنبات الشارع الذى كانت تسكنه.

وسارعت الجالية اليهودية بالهرب من إشبيلية إلى شتى أنحاء إسپانيا أملًا فى أن يوفر لهم الأشراف والوجهاء الحماية لهم على نحو ما أسلفنا، ولكن الكنيسة كما أوضحنا أصدرت أوامرها لهؤلاء الأشراف بتسليم أى يهودى يستجير بهم إلى محاكم التفتيش. وحتى ندرك مقدار الفزع الذى بثته محكمة التفتيش فى قلوب هؤلاء الوجهاء، نقول إن ماركيز كاديز وحده أرجع نحو ثمانمائة يهودى من المستجيرين به من حيث أتوا، وهكذا ارتفع عدد المقدمين إلى محكمة التفتيش بصورة هائلة، فاضطر المحققون إلى الانتقال من مقرهم فى دير سانت بابلو الدومينيكانى إلى مقر جديد أوسع وأرحب فى قلعة تريانا خارج المدينة، وبسبب الأعداد الغفيرة من اليهود المشكوك فى صدق تحولهم إلى العقيدة المسيحية اكتظت بهم السجون والزنزانات.

وفى الفترة التى تفشى فيها الطاعون، كان محظورًا على اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى من أصحاب السمعة الطيبة مغادرة مدينة إشبيلية إلا بعد ترك ممتلكاتهم وراءهم، واستمرت أحكام الإعدام فى الصدور بدون انقطاع، حتى الموتى نبشت قبورهم لاستخراج عظامهم. وبحلول الرابع من نوفمبر تم إحراق ٢٩٨ شخصًا بينما حكم بالسجن المؤبد على ٩٨ شخصًا. وتقدم الكثيرون منهم يعلنون توبتهم على رجاء أن تعاملهم محاكم التفتيش بشىء من الرأفة، ولكن هذه المحاكم أجبرتهم على المشى فى طوابير فى شوارع المدينة للتكفير عن ذنوبهم، فضلًا عن إصدار أحكام بالسجن على هؤلاء التائبين (انظر كتابى «محاكم التفتيش»). والتمس التائبون الرحمة لدى بابا روما الذى عبر فى يناير عام ١٤٨٢ عن استنكاره للإفراط فى استخدام القسوة معهم. ولكن محاكم التفتيش فى إسپانيا لم تكترث برغبة البابا أو تبالى بنصيحته.

واتبعت محاكم التفتيش الإسپانية نهجًا خاصًا فى محاكمة اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى؛ حيث إنها نشرت بيانًا ذكرت فيه العلامات والمؤشرات الدالة على زيف تحولهم إلى النصرانية، وهى مؤشرات واهية ولا يمكن التعويل عليها أو الاعتداد بها، منها أنهم يغسلون أيديهم قبل الصلاة، ويقومون بتغيير الفراش أيام السبوت، وتسمية أبنائهم بأسماء من العهد القديم، وكذلك قيام المحتضر بإدارة وجهه إلى الحائط وهو فى النزع الأخير. وأجبرت محاكم التفتيش أحبار اليهود إلى الإدلاء بمعلوماتهم عن كل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق المسيحية حتى لا يتعرضوا للعقوبة، فعلى سبيل المثال تعرض حبر من أحبار اليهود فى مدينة سرقسطة للتهديد بالموت إذا امتنع عن حث

بنى جلدته على طاعة المحققين والوشاية برفاقهم الذين لا يزالون يمارسون الطقوس والشعائر اليهودية، والتمس يهودى من الحبر أن يعفيه من عبء الوشاية بزميل له يدعى ألفونسو دى لا كابالريا لأن إفشاء سره سوف يؤدى إلى اتهام سائر أفراد الجالية اليهودية الذين تبعوه، ووافق الحبر على ذلك، غير أنه ما لبث أن تراجع عن موقفه بعد أن تبين له من المرسوم الصادر بطرد اليهود من إسبانيا فى عام ١٤٩٢ أنه يحتم عليه تبليغ السلطات، وأيضًا توقع رئيس الجالية اليهودية فى إشبيلية جوداه بن فيرجا القبض عليه بسبب تحريضه لكثير من اليهود المعتنقين للمسيحية على العودة إلى دين أسلافهم، ورغم أن جوداه تمكن من الهرب إلى لشبونة قبل القبض عليه، فإن السلطات المدنية، أو الذراع المدنى، استطاع الوصول إليه وسجنه وتعذيبه حتى الموت.

وكثر عدد اليهود المشكوك فى صحة تحولهم إلى النصرانية، الأمر الذى دعا إلى إنشاء محاكم تفتيش إضافية، وأصدر البابا يوم ١١ فبراير ١٤٨٢ قرارًا بتعيين سبعة محققين إضافيين، منهم توركويمادا كاهن اعتراف الملكة إيزابيلا الذى كان بحكم صلته الحميمة بها يتمتع بنفوذ هائل فى مملكة كستيلا.

وتوالى تعيين المزيد من المحققين فى مدن قرطبة وجمين وسيوداد ريال، وكانت عشيقة المسئول عن خزانة الكاتدرائية من أوائل ضحايا محكمة التفتيش فى قرطبة التى أصدرت أمرًا بحرق عشيقها أيضًا بعد أن تم حرقها بعام واحد، وقد أنشئت محكمة سيوداد ريال من أجل التعامل مع منطقة طليطلة، ولم يزدد عدد الذين حكمت عليهم هذه المحكمة بالحرق فى ٦ فبراير ١٤٨٤ عن أربعة أشخاص، ولكن عدد المحروقين ارتفع حتى وصل إلى ثلاثين رجلًا وامرأة فى حكمها التالى الصادر يومى ٢٣ و٢٤ من نفس الشهر.

ورغم أن هذه المحكمة لم تستمر لأكثر من عامين، فإنها قامت بإحراق ٥٢ مهرطقًا، وإدانة ٢٢٠ هاربًا، وإرغام ١٨٣ شخصًا على إعلان توبتهم والتكفير عن ذنوبهم. وفى عام ١٤٨٥ انتقل مقر هذه المحكمة إلى مدينة طليطلة، وفى طليطلة المكتظة بالتجار اليهود الأثرياء تكرر ما حدث فى إشبيلية، فقد سعى يهود طليطلة إلى الحيلولة دون تدخل السلطات فى شئونهم، كما سعوا إلى الاستيلاء على كاتدرائية المدينة، ولكن سعيهم باء بالفشل الذريع لأن السلطات هناك اكتشفت المؤامرة التى يحيكونها ضدها. وبعد انتقالها إلى مقرها الجديد فى طليطلة أصدرت محكمة التفتيش فى ١٢ فبراير ١٤٨٦ حكمًا بإعدام سبعمائة وخمسين شخصًا، سيقوا فى شوارع هذه المدينة وهم حفاة الأقدام وعراة الرءوس، وقد اصطفت الجماهير الإسبانية القادمة من الريف للفرجة والاستمتاع، وكتبت على جبين المتهمين عبارة: «تلقوا إشارة الصليب الذى أنكرتموه وفقدتموه».

وقامت المحكمة بمصادرة خُمس ممتلكاتهم لتغطية نفقات الحرب التى يشنها الإسپان على المسلمين. (والجدير بالذكر فى هذا الشأن أن المسلمين كانوا قد استطاعوا احتلال الجنوب الإسپانى فى حين ظل المسيحيون يعيشون فى شمال البلاد). وتكررت الحملات التى شنها المسلمون فى الجنوب على سكان الشمال غير أن المسلمين المنتصرين ما لبثوا أن انصرفوا إلى حياة الرغد واللهو والترف مما أضعفهم فى نهاية المطاف وقلب ميزان القوى تمامًا لغير صالح المسلمين، حيث ظهر عام ١٠٤٣ القائد الإسپانى رودريجو دى فينار الشهير باسم «سيد كامبيدور» الذى استطاع أن يبعث الروح فى صفوف المسيحيين المهزومين، وكان ذلك فى فترة حكم الملك ألفونسو، ولكن جيش المسلمين ما لبث أن تمكن من استعادة الأراضى التى فقدوها، ولكن أربعة قرون انصرمت قبل أن ينجح الملك الإسپانى فرديناند (١٤٥٢ ـ ١٥١٦) وزوجته إيزابيلا من إلحاق الهزيمة الماحقة بالمسلمين.

وكذلك أصدرت محكمة التفتيش الأمر بحرمان اليهود المتهمين بالردة من تقلد أية وظائف عامة، وإلباسهم أخشن الملابس، وأمرهم بالسير فى المواكب ستة أيام جُمع متتالية، وأن يقوموا بجلد أنفسهم كفارة عن ذنوبهم، فإذا تخلف أحدهم عن فعل هذا اعتبر مهرطقًا منتكسًا يستحق الحرق. ثم أصدرت المحكمة فى حكمها الثانى أحكامًا ضد تسعمائة تائب، ثم حكمها الثالث ضد سبعمائة وخمسين تائبًا. وقبل مضى عام واحد بلغ عدد الذين استعملت المحكمة نوعًا من الرأفة معهم خمسة آلاف شخص، وتم إحراق عدد كبير من الناس وأحيانًا كان يتم إحراق خمسين شخصًا فى اليوم الواحد، بينهم رجال دين ورهبان اشتهروا بالقداسة وطهارة الذيل.

وبالنظر إلى أن اليهود استشعروا خطر محاكم التفتيش الداهم عليهم، فإنهم لم يكفوا عن مقاومته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا على نحو ما رأينا. وكانت المقاومة فى مملكة أراجون أقوى وأشد من الممالك الإسپانية الأخرى، وكالعادة كان يهود أراجون يتمتعون بالثراء العريض والنفوذ الواسع، ويبدو أنهم كانوا ضالعين فى اغتيال المحقق جاسبار جاجلار يوم ١٠ مايو ١٤٨٤ بسبب أحكام الإعدام الكثيرة التى أصدرها على اليهود فى مدينة سرقسطة.

كان بدرو أربويس كاهن كاتدرائية سرقسطة هو الدينامو المحرك لمحاكم التفتيش، الأمر الذى جعل اليهود المتحولين يرتعبون منه ويسعون إلى التآمر للتخلص من حياته. وكانت قائمة المتآمرين اليهود ضده تضم مجموعة من علية القوم أمثال سانكو دى باترنوى، وجابرييل سانشس، وفرنسيسكو دى سانتافى، وجيرونيمو دى سانتافى، وفى ليلة ١٥ سبتمبر ١٤٨٥ قام هؤلاء المتآمرون اليهود بالهجوم على أربويس أثناء انشغاله بالصلاة فى الكاتدرائية وأصابوه بجرح بالغ أدى إلى وفاته بعد يومين من إصابته، وفيما بعد أدرجه بابا روما فى قائمة الشهداء.

كان من الطبيعى والحال كذلك أن تطالب الجماهير الإسپانية بالثأر من اليهود المتآمرين، وأن تسعى محاكم التفتيش للانتقام منهم، فقبضت على المئات منهم وزجت بهم فى سجون الجافيريا، وهى قلعة قديمة كان المسلمون القادمون من شمال أفريقيا قد شيدوها. وكان نحو أربعين سجينًا يحشرون فى زنزانة واحدة، وتم إعدام القائمين بالاغتيال بطريقة بالغة القسوة، كما أصدرت محاكم التفتيش أوامر بحرق شركائهم فى الجريمة، ويقال إنه صدرت الأحكام بإعدام ما لا يقل عن مائتى متورط فى عملية الاغتيال. ولكن يحتمل أن يكون هذا العدد مبالغًا فيه. وإذا كان لويس دى سانتا نجيل قد تمكن من الفرار بسبب نفوذه فى البلاط الملكى فقد قُطعت رأس ابن عمه وسميه باعتباره أحد المتآمرين الرئيسيين فى أرض السوق، وعلقت رأسه على عامود وأحرقت جثته. وتعرض سانكو دى باترنوى للتعذيب الأليم وحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكنه استطاع نظير المال أن يحصل على الإفراج ويعود إلى وظيفته. وقام أحد المتآمرين وهو فرانسيسكو دى سانتا فى بالانتحار قبل إصدار الحكم عليه. وهرب كثير من المتآمرين إلى فرنسا فقامت محكمة التفتيش بحرق دمى تمثل أشخاصهم وبطبيعة الحال صودرت جميع ممتلكاتهم. ورغم أن المتآمر ألفونسو دى لا كاباليرى نائب مستشار الملكة استطاع عن طريق بابا روما الحصول على عفو وتأكيد لسلامة إيمانه بالمسيحية، فإنه ـ بالطبع ـ لم يستطع أن يمنع محكمة التفتيش من استخراج عظامه من القبر وحرقها، كما أنه لم يستطع أن يمنعها من إصدار حكم باستتابة زوجته.

وأيضًا وقع عدد كبير من اليهود المتحولين إلى المسيحية تحت رحمة محكمة مدينة سرقسطة التى كثيرًا ما أصدرت أحكامها بإدانة كثير من أفراد العائلات الكبيرة مثل عائلة سانتانجيل، وعائلة سانكيز، حتى مؤرخ البلاط الملكى واسمه مايسر چونزالو دى سانتا ماريا سقط فى براثن محاكم التفتيش، فمات بعد تقديمه للمحاكمة ثلاث مرات، وفى غضون خمسة عشر عامًا صدر فى مدينة سرقسطة أكثر من خمسين أمر بالإعدام، وفى عام ١٤٨٨ أنشئت محكمة تفتيش برشلونة التى راح ضحيتها أحد أفراد عائلة جيرونيو دى سانتافى، وفى العام التالى أقيمت محكمة تفتيش فى مايوركا. وقد أدى نشاط محاكم التفتيش المحموم والقائم على التنكيل إلى هروب كثير من اليهود وغير اليهود من إسپانيا وبوجه خاص إلى جنوب فرنسا. ولم تقف الكنيسة مكتوفة اليدين أمام هذا الهرب المتكرر إلى البلاد المختلفة، فقد أمر البابا إينوسنت الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢) مفوضية هذه البلاد بالإسراع بتسليم الفارين إلى الكنيسة، وكان الأمراء والحكام فى هذه البلاد على استعداد لاستخدام العنف لإرضاء البابا وإجابته إلى طلبه.

وفى عام ١٤٩٢ سقطت غرناطة آخر معقل للمسلمين فى إسپانيا فى يد القوات المسيحية

الظافرة، الأمر الذى أشعل حماس الإسپان الدينى وشجعهم على إحكام قبضتهم على اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى، وفى جو التعصب المسيحى الهستيرى، سرت شائعة فى مدينة أفيلد بذبح اليهود لطفل مسيحى من لاجارديا بهدف الانتفاع من دمه فى إقامة بعض الطقوس اليهودية، الأمر الذى شحذ همة محاكم التفتيش التى أصدرت فى خلال ثمانية أعوام أحكامًا بإعدام سبعين متهمًا فى هذه القضية المختلقة.

وفى ٣٠ مارس عام ١٤٩٢ تحقق حلم توركويمادا بتطهير إسپانيا من الوجود اليهودى، فقد اجتمع فى غرناطة بعد تحريرها من المسلمين ملوك إسپانيا ليوقعوا مرسومًا بطرد مائتى ألف يهودى منها.

وحتى يسهل اكتشاف اليهود الذين يتظاهرون بالمسيحية، أصدرت محاكم التفتيش قائمة تعدد الممارسات والشعائر والمعتقدات التى تمارس فى الدين اليهودى ولا صلة لها بالدين المسيحى، مثل الإيمان بأن المسيح المُخلِص لم يأت إلى العالم بعد، ومراعاة السبوت والأعياد والمناسبات اليهودية، والامتناع عن أداء أى عمل فى هذه الأيام، فضلًا عن لبس أفخر الملابس بمناسبة حلولها. ثم هناك طريقة ذبحهم للحيوانات والماشية، ومباركة أبنائهم بوضع الأيدى على رءوسهم دون رسم إشارة الصليب، ثم إن القانون الموسوى حرم على النساء اللاتى ولدن دخول دور العبادة لمدة أربعين يومًا، فضلًا عن أن اليهود يمارسون الختان ويطلقون أسماء عبرية على أبنائهم، وكذلك يغسل اليهود أجساد موتاهم ويحلقون شعورهم ويلبسون الملابس القشيبة ويرشون بيوت الموتى بالماء ويمتنعون عن أكل اللحوم فى فترات الحداد.

ويقول المؤرخ الثقة چوان أنتونيو للورنت إن المحققين فى محاكم التفتيش كانوا أشد ما يكونون حرصًا على إدانة آلاف اليهود المرتدين فى إشبيلية حتى يثبتوا للملكة إيزابيلا مدى تفشى الهرطقة فى هذه المدينة والحاجة إلى إقامة محكمة تفتيش هناك. والجدير بالذكر أن المؤرخ أنتونيو للورنت اشتهر بالصدق والأمانة كما يشهد له الروائى رافائيل ساباتينى فى كتابه الحجة «توركويمادا ومحاكم التفتيش الإسپانية».

ولد المؤرخ للورنت فى مدينة لوجرونو عام ١٧٥٦، ثم صار قسيسًا فى الثالثة والعشرين من عمره بعد أن درس القانون الرومانى والقوانين الكنسية فى الجامعة. وبسبب تفوقه تم تعيينه عضوًا فى مجلس إشبيلية الأعلى، وهو المجلس الذى يدير شئون محكمة التفتيش هناك، كما عين أمينًا للمكتب المقدس فى مسقط رأسه بعد أن أثبت أن عروقه تخلو من أية دماء يهودية أو إسلامية،

وأغضب هذا الرجل بأمانته وصدقه واستقلال رأيه محاكم التفتيش، فأرسلته لأداء التوبة فى أحد الأديرة، وعندما قام ناپليون بغزو إسپانيا وإلغاء محاكم التفتيش مؤقتًا، سنحت للورنت فرصة لفحص ودراسة الأرشيف الضخم الخاص بمحاكم التفتيش. وفى النهاية طرد هذا الرجل من إسپانيا فاستقر فى پاريس، حيث ألف كتابه المهم: «التاريخ التحليلى لمحاكم التفتيش فى إسپانيا»، وأثار هذا الكتاب حفيظة كل من الكنيسة والسلطات الإسپانية، فقامت الكنيسة بشلحه من الكهنوت ومنعته من مباشرة التدريس فى المدارس، واستطاع هذا الرجل الصادق والأمين قبل وفاته فى السادسة والستين من عمره أن يفضح محاكم التفتيش ويميط اللثام عن جرائمها على نحو لم يسبق له نظير.

ومن المؤسف أن الرهبان كانوا أكثر جدًّا واجتهادًا من رجال الكنيسة الآخرين فى اقتفاء أثر الهرطقة. ولم يتورع أحد من هؤلاء الرهبان فى تعقبه لليهود المتحولين إلى النصرانية من أن يتسلق فى صبيحة أحد أيام السبوت سقف دير القديس بولس ليكتشف عدم انبعاث الدخان من مداخنه، مما يدل على عدم إشعال أى نار فيها، وليس هناك من يمتنع عن إشعال النار فى أيام السبوت غير اليهود، ومن ثم يجب تقديم كل صاحب دار يهودى لا ينبعث منها الدخان إلى محكمة التفتيش؛ لأن هذا من شأنه أن يثير الشكوك حول صدق اعتناقه للدين المسيحى.

وبطبيعة الحال استجار اليهود من تعسف محكمة التفتيش فى إشبيلية وقسوتها فى التنكيل بهم إلى البابا سكستوس الرابع، وأكدوا له أنهم مسيحيون صادقون ما فى ذلك ريب، ونظرًا للنزاع المحتدم بين هذا البابا والملكة إيزابيلا، نراه يتدخل لصالح اليهود المتحولين ويدين الممارسات القمعية التى لجأت إليها محكمة التفتيش فى كستيلا، وتعلل البابا بقسوة هذه المحكمة بسحب موافقته على أحقية الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند فى تعيين المحققين الذين تختارهم. ولم يحتج الملكان على تجريد البابا لهما من هذا الحق؛ لأنهما استمرا فى الاحتفاظ بحق مصادرة الممتلكات الخاصة بالمهرطقين، وأثلجت هذه المصادرات صدر فرديناند لأنه استخدمها فى تمويل حملاته العسكرية ضد المسلمين المتمركزين فى غرناطة. ورغم ازدياد نفوذ البابا سكستوس الرابع فى شئون محاكم التفتيش فى مملكة كستيلا، فإنه وافق على ترشيح ملكيها لتوماس توركويمادا كرئيس أعلى لمحاكم التفتيش وقام بتعيينه فى هذه الوظيفة. وفى ٢ أكتوبر ١٤٨٣ صار توركويمادا المفتش العام، ولم يمض خمسة عشر يومًا حتى أصبح له أيضًا الولاية القضائية على مملكة أراجون.

***

الفصل الثانى

الراهب توركويمادا والمكتب المقدس

قبل أن نتحدث عن المكتب المقدس، والعمل الإيمانى، نتناول حياة الراهب الإسپانى الشهير توماس دى توركويمادا (١٤٢٠ ـ ١٤٩٨). وتوركويمادا مدينة إسپانية صغيرة تقع بالقرب من بلد الوليد. عرف هذا الراهب بشدة تعصبه، ومن الناس من يعجب به إلى حد العبادة ومنهم من يتقزز لمجرد سماع اسمه.

ولد توماس عام ١٤٢٠ وظل ثمانية وخمسين عامًا خامل الذكر، ولكنه فى العشرين عامًا الأخيرة من حياته ترك أثرًا لا يُمحى فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، وهو ينحدر من عائلة أرستقراطية سطع نجمها فى القرن الرابع عشر عندما منح الملك ألفونسو دى توركويمادا لقب فارس. وكان عمه چوان دى توركويمادا (١٣٨٨ ـ ١٤٦٨) مؤلفًا وعالم لاهوت بارزًا اكتسب رضا الڤاتيكان بدفاعه المجيد عن عصمة بابا روما من أخطاء البشر، وكافأه البابا بأن خلع عليه كسوة من القطيفة الأرجوان، كما عينه فى وظيفة كاردينال سان سيستو. والراهب توماس هو ابن أخى هذا الكاردينال المرموق واسم هذا الأخ بيرو فرنانديز. تميز توماس منذ بدء حياته برغبته الشديدة فى أن يصبح راهبًا ويدخل دير الدومينيكان. واستاء والده بيرو فرنانديز لذلك؛ لأنه كان يأمل أن يتزوج ابنه وينجب ذرية، ولكن توماس صمم على الالتحاق بدير سانتا كروز فى سيجوفيا، حيث عين رئيسًا لهذا الدير، وأظهر توماس منذ التحاقه بالدير نزعة واضحة للزهد وآثر أن يمتنع امتناعًا كاملًا عن أكل اللحوم والاكتفاء بالنزر اليسير من الطعام، وأيضًا رفض أن يلبس تحت رداء الرهبنة أية ملابس قطنية تحميه من خشونة ملابس الدومينيكان، وإمعانًا فى الزهد والتقشف اعتاد فى معظم الأحيان أن يلبس قميصًا شائكًا مصنوعًا من الشعر، كما أنه كان يسير حافى القدمين. وتعجب كثيرون من تواضعه نظرًا لانتمائه إلى عائلة نبيلة وميسورة الحال، وذاع ورعه وتواضعه فى أرجاء مملكة كستيلا، وعندما أحضر الملك هنرى الرابع إيزابيلا أخته غير الشقيقة حتى تتم تربيتها تحت إشرافه، انتزع منها وعدًا بإنشاء محاكم التفتيش فى مملكتها إذا هى أصبحت ملكة. وعندما تولت إيزابيلا عرش كستيلا على نحو ما فصلنا فى الفصل الأول، أصبح هذا الراهب لصيقًا لها وموضع ثقتها وأقرب وأحب المستشارين إلى قلبها.

ورغم تعصبه الشديد فمن المؤكد أن توماس دى توركويمادا كان مخلصًا فى تدينه، وأنه أراد أن يثبت دعائم الكنيسة الكاثوليكية بأى ثمن، وأنه كان لا يسعى إلى أى مجد شخصى. ومن ثم اعتبره البعض وليًّا من الأولياء الصالحين، ولكن يبدو أن كراهيته لليهود كانت مضرب الأمثال، ويعزو بعض المؤرخين هذه الكراهية إلى أن جده الأكبر الفارس فرنانديز دنس دم عائلته عندما تزوج يهودية على جانب كبير من الثراء فى نهاية القرن الرابع عشر فى فترة كان فيها اليهود الإسپان يعيشون فى نوع من الأمن والسلام والرغد والرخاء. ويبدو أن جد توماس كان سعيدًا مع زوجته اليهودية، ولكن مع تصاعد المشاعر المعادية لليهود وانتشار الشائعات السيئة عنهم، سبب له زواجه باليهودية قدرًا من الحرج، ومن الجائز أن الراهب توماس دى توركويمادا أراد بالتعبير عن كراهيته المشبوبة لليهود أن يتنصل من أى دماء يهودية قد تكون عائلته قد ورثتها من أسلافها، الأمر الذى يذكرنا بأن أكثر الناس تحمسًا لإنشاء محكمة تفتيش فى إشبيلية وأشدهم إمعانًا فى التنكيل باليهود المشكوك فى ولائهم وصدق تحولهم للدين المسيحى هو ألونسو دى سبينيا ذلك الرهب الفرانسيسكانى، الذى تحول من اليهودية إلى المسيحية، ولعل هذه الغلواء فى التحمس للمسيحية نوع من المزايدة ودرءًا للشبهات حتى لا تحوم حوله، غير أن مسألة وجود دم يهودى فى عروق عائلة توركويمادا مسألة خلافية لدى المؤرخين، ففى حين يؤكدها السكرتير الخاص للملكة إيزابيلا فرناندو ديل بلجار توى إلا أن المؤرخ جيرونيمو زورينا ينفيها نفيًا قاطعًا.

والجدير بالذكر أن البابا سكستوس الرابع قام بناء على طلب من إيزابيلا بعقد مؤتمر حول محاكم التفتيش حضره الكرادلة الإسپان، وتقرر فى هذا المؤتمر أن يتولى رؤساء الأساقفة الإسپان إدارة شئون محاكم التفتيش بكل أمانة وتفانٍ وإخلاص؛ بحيث لا يسمح لأى أسقف تجرى فى عروقه أى دماء يهودية إجراء التحقيق؛ ويذهب رافائيل ساباتينى مؤلف كتاب «توركويمادا ومحاكم التفتيش» إلى أن مثل هذا القرار دليل دامغ على خلو توركويمادا من الدم اليهودى، ولكن آخرين لا يذهبون هذا المذهب؛ لأن الرجل كان يتمتع بحظوة عظيمة لدى الملكة إيزابيلا وبفرض أن هذه الملكة كانت تعلم بوجود بعض الدماء اليهودية فى كاهن اعترافها، فإن ذلك لم يؤثر على الإطلاق على ودها وتقديرها له؛ حيث إنها كانت كمبدأ عام لا تحمل أى بغض شخصى لليهود المتحولين إلى الدين المسيحى، فضلًا عن أن الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا كانا على خلاف دائم مع البابا سكستوس الرابع، وليس من المستبعد أنهما لم يكترثا بأوامره وتعليماته.

شغف توماس دى توركويمادا بالعمارة وكانت هوايته المفضلة، ويقال إنه تخلى عن جهامته وصرامته فى حضرة البنائين الذين عاملهم برقة ومودة. وقام توركويمادا بتشييد عدد من المبانى

والمنشآت العظيمة مثل كنيسة مدينته توركويمادا، والجسر المقام على نهر بنسوبرجا. ويعتبر دير القديس توماس فى مدينة أفيلا أعظم منشآته على الإطلاق، وأنفق كل موارده التى حصل عليها من محاكم التفتيش فى زخرفة هذا الدير وتزيينه، واستغرق بناء الدير عدة أعوام، وقد مكث توركويمادا فى هذا الدير العظيم، كما أنه استخدمه كسجن لحبس ضحاياه من المهرطقين.

وبمجرد تعيين هذا الراهب رئيسًا عامًا لمحاكم التفتيش، حتى بدأ بإصلاح القوانين المنظمة لعملها، وأصدر تعليماته الشهيرة البالغ عددها ثمانية وعشرين بندًا، ويوضح البند الأول فى هذه التعليمات أسلوب العمل فى محكمة التفتيش التى تقام لأول مرة فى مكان ليست فيه أصلًا محاكم تفتيش. فى مثل هذه الحالة اشترط توركويمادا استدعاء جميع سكان المكان إلى الكنيسة فى أحد أيام الآحاد أو الإجازات العامة، ويقوم أبلغ الخطباء أو واحد من المفتشين بإلقاء كلمة بهذه المناسبة. وعندما تصل الخطبة إلى نهايتها يعلن الواعظ أو الخطيب ضرورة قيام جميع المسيحيين الحاضرين بالقسم على الصليب أو الأناجيل لنصرة محاكم التفتيش وتذليل العقبات أمامها ومساندة العاملين فيها.

ثم تعلن مهلة أو فترة سماح تتراوح بين الثلاثين والأربعين يومًا تمنح لكل المهرطقين والمرتدين والمارقين الذين يمارسون الشعائر اليهودية رغم اعتناقهم الدين المسيحى للإعلان عن توبتهم، فإذا تابوا فى المهلة الممنوحة تعاملت معهم محكمة التفتيش باللين والرحمة طالما كانت توبتهم خالصة وطالما أنهم اعترفوا بذنوبهم وأبلغوا عن ذنوب جيرانهم. ورغم اعترافهم بالذنب فلم يكن هناك مناص من إنزال عقوبة مخففة عليهم مع استبعاد عقوبة الحرق أو مصادرة ممتلكاتهم وممتلكات عائلاتهم. وتعين على التائبين أن يقدموا اعترافًا مكتوبًا لمحكمة التفتيش التى عاقبتهم بالامتناع عن لبس الثياب القشيبة والفاخرة، وعن امتطاء صهوات الجياد، وعليهم كذلك عدم حمل السلاح طوال حياتهم. ورغم السماح لهم بالاحتفاظ بممتلكاتهم فإنه يتعين عليهم أن يتوقعوا أن تطالبهم محكمة التفتيش بتسليم جزء من ممتلكاتهم إليها لاستخدامه فى أغراض مقدسة مثل الحرب التى شنها الملك فرديناند وإيزابيلا على المسلمين فى غرناطة بناء على الإرشادات والتوجيهات الصادرة من توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش.

وإذا انقضت فترة المهلة دون أن يقدم المهرطق للاعتراف بذنبه ثم اعترف بذنبه من تلقاء نفسه فى وقت لاحق، فإن محكمة التفتيش تعامله برأفة فلا تأمر بإحراقه، ولكن المهرطق فى هذه الحالة يفقد أحقيته فى الاحتفاظ بأى من ممتلكاته التى تؤول إلى محاكم التفتيش التى تنزل به عقابًا أشد

صرامة إذا اتضح أن ذنبه جسيم؛ إذ يمكن أن يحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكن المحكمة تمتنع عن حرقه مكافأة له على تقديم نفسه طواعية للمحكمة.

وإذا جنح الأطفال إلى الهرطقة تحت تأثير ذويهم السيئ، فينبغى على محكمة التفتيش أن تعامل هؤلاء الأطفال بلين ورأفة، وإذا كانوا دون العشرين وتطوعوا بالتبليغ عن ذويهم، فإن المحكمة تفرض عليهم ضروبًا من التوبة مخففة وتعلمهم مبادئ الإيمان الصحيح بالدين المسيحى.

وكذلك ينبغى مصادرة كل ممتلكات المهرطقين والمرتدين، فإذا كان المهرطق ثريًّا وشعر بدنو القبض عليه وباع أملاكه للغير فمن حق محكمة التفتيش إذن أن تصادر هذه الأملاك حتى بعد بيعها؛ لأنها كانت ملكًا للمهرطق فى فترة هرطقته. ويحق للمهرطق أو المرتد المقبوض عليه أن يتصالح مع الكنيسة، ويجب عليها أن تقبل عودته إلى حظيرتها إذا كانت توبته نصوحًا، وعندئذ يتعين على المهرطق المخلص فى توبته تبليغ السلطات عن أصدقائه ومعارفه، وإذا اتضح أن المهرطق لا يتحرى الصدق فى اعترافاته، فإنه يسلم على الفور إلى الذراع العلمانية للكنيسة، أى إلى السلطة المدنية لإعدامه.

وإذا عجزت محكمة التفتيش عن إثبات ذنب المتهم إثباتًا قاطعًا، فمن حقها أن تزج به فى السجن، وتقوم بتعذيبه لتعرف منه الحقيقة التى عليه تكرار الإدلاء بها فى غضون ثلاثة أيام.

وحظرت التعليمات التى أصدرها توركويمادا نشر أسماء الشهود حتى لا يتمكن المتهمون من إلحاق الأذى بهم، وإذا ثبت بعد الاستدعاء والتحرى أن أيًّا منهم مذنب، يمكن نشر ملخص الشهادات التى أدين بمقتضاها دون الكشف عن أسماء الشهود ودون ذكر أية معلومات من شأنها إماطة اللثام عنهم، ولكن يتعين على المحامين المدافعين عنه الانسحاب من القضية إذا تبين لهم أن المتهم مذنب.

وإذا لاذ منهم بالفرار حتى يتفادى القبض عليه، فينبغى تعليق مرسوم على أبواب الكنائس فى كل أنحاء المقاطعة يأمره بتسليم نفسه إلى المحققين خلال ثلاثين يومًا، فإذا لم يفعل هذا يصبح ذنبه مؤكدًا وثابتًا عليه.

وإذا ثبتت تهمة الهرطقة على رجل متوفٍ، فإنه ينبغى محاكمته، فإذا ثبت أنه مذنب يجب نبش قبره لاستخراج جثته وإلقائها فى النار، كما ينبغى مصادرة أملاكه، ولكن من حق عائلته أن تدافع عنه، فإذا فشلت فى إثبات براءته فإنها تتعرض للعقوبات المفروضة على أبناء المهرطقين.

وأيضًا تنص تعليمات توركويمادا على أن تقوم السلطات المحلية بحسن استقبال المفتشين

وتسهيل مهمتهم، فإذا أحجموا عن ذلك توجه إليه تهمة مساعدة المهرطقين وتشجيعهم على الهرطقة.

وإذا أعدم أبناء المهرطقين بسبب ثبوت تهمة الهرطقة عليهم وتركوا وراءهم أطفالًا قُصر أو أشخاصًا غير متزوجين، يجب أن يتولى المفتشون فى محاكم التفتيش تعليمهم مبادئ الدين المسيحى الحق، ويمكن للعطف السامى والأريحية الملكية أن تشملهم وتعينهم على الحياة ويعطى البنات منهم مبلغ صغير من المال يعينهن على الزواج كما يمكنهن الالتحاق بدير الراهبات. ويبدو أن هذه الفقرة فى القانون لم توضع موضع التنفيذ قط؛ لأن المؤرخ الثقة المتخصص فى محاكم التفتيش للورنت يؤكد أنه بحث جاهدًا فى أرشيف هذه المحاكم فلم يجد تطبيقًا واحدًا لهذا البند.

وإذا تصالح تائب مع الكنيسة واهتدى إلى الدين الصحيح وصودرت ممتلكاته قبل توبته، فإن من حقه الاحتفاظ بأية ثروة قد تؤول إليه بعد إعلان هذه التوبة، وينبغى كذلك وفقًا لتعليمات توركويمادا تحرير العبيد التابعين للمهرطقين وإطلاق سراحهم، وحتى إذا سمحت محكمة التفتيش لمهرطق تائب أن يحتفظ بجزء من ممتلكاته فإنه يفقد حقه فى الاحتفاظ بأى من عبيده.

ويجب على أى موظف تربطه علاقة بمحاكم التفتيش أن يمتنع عن تلقى الهدايا من المتهمين أو المشتبه فيهم حتى لا يتعرض للحرمان الكنسى، وإذا اتضح أن موظفًا تلقى هدية فتوضع عليه غرامة تعادل قيمتها ضعف ثمن الهدية.

وإذا اختلف أعضاء محكمة التفتيش فيما بينهم فعليهم الاحتكام إلى توركويمادا، أما إذا ارتكب المحقق نفسه خطأ فيجب معاملته برأفة ومراعاة الرحمة فى الحكم عليه، وإذا ظل سادرًا فى غيه فيجب تبليغ توركويمادا بأمره لاستبداله بمحقق آخر.

وإذا عرضت مشكلة لا تغطيها هذه التعليمات فإنه يتعين على المفتش أن يعالجها ويصل إلى القرار المناسب بشأنها بحيث يخدم قراره الملك والله معًا.

لم يكتف توركويمادا بمعاقبة المهرطقين على نحو ما أسلفناه، ولكنه أيضًا سعى إلى التصدى للانحرافات الاجتماعية والجنسية، فهو يعاقب بالحرق تعدد الزوجات والممارسات المثلية، غير أنه واجه مشكلة عويصة هى تفشى الانحلال الجنسى بين رجال الكنيسة، فبعض آباء الاعتراف كانوا يستغلون انفرادهم ببعض الحسناوات لمراودتهن عن أنفسهن، ونحن نقرأ عن راهب من أتباع جيرومى بيرالت يضبط وهو يمارس الجنس مع غلام فى الرابعة عشرة من عمره كان فى رعايته وتحت إشرافه، وجاء حكم توركويمادا ومحاكم التفتيش على هذا الراهب مخففًا للغاية، فقد صدر

الحكم بحبسه فى الدير لمدة عام، ولكنه سمح له بإقامة القداس. ومن المفارقات أن يأتى الحكم على الغلام أكثر قسوة، فقد اقتيد فى الشوارع ليجلد خمس جلدات فى ركن كل شارع، كما أنه أجبر على حمل لافتة توضح نوع الذنب الذى اقترفه، ويبدو أنه لفظ أنفاسه نتيجة تكرار جلده فى حين ظل الراهب الذى واقعه حيًّا يُرزق.

وهناك أيضًا حالة راهب آخر يدعى «بيويو» كان أب اعتراف عدد من الراهبات فى دير القديسة مونيكا، واستطاع هذا الراهب أن يغوى خمس راهبات ويراودهن عن أنفسهن، ورغم ذلك فقد عفت عنه محاكم التفتيش، ويبدو أن عقاب هؤلاء القساوسة والرهبان المنحرفين لم يتجاوز سجنهم لفترة قصيرة فى الدير ومنهم من تلقى اعترافات الخطاة.

والجدير بالذكر أن كراهية توركويمادا المشبوبة لم تقتصر على اليهود والمهرطقين فحسب، بل امتدت إلى المسلمين، فعندما واجهت حملة الملك فرديناند ضد المسلمين فى غرناطة مشاكل خطيرة باتت تهددها بالفشل، أسرع توركويمادا المشغول آنذاك ببناء دير القديس توماس بأفيلا إلى إنقاذ الحملة من الانهيار، فتوقف عن استكمال الدير وأتى باثنى عشر بغلًا حملها بزلع مليئة بالذهب أرسلها إلى الملك لتمكينه من دحر المسلمين. ورغم فشل هذه الحملة فى تحقيق الغرض منها ورغم اضطرار الملك إلى رفع الحصار عن مدينة لوجا بسبب الأمراض التى تفشت فى صفوف قواته، فإن هذه الحادثة تبين مدى العلاقة الوطيدة التى ربطت توركويمادا بالملك فرديناند وزوجته إيزابيلا.

المكتب المقدس

عندما تثور الشكوك حول هرطقة أى شخص، كانت محكمة التفتيش تقتاده إلى غرفة خاصة مكسوة بالسواد فى مبناها الذى أطلق عليه اسم «البيت المقدس» أو «المكتب المقدس»، وكان يكفى أن يتفق شاهدان فى شهادتهما ضد هذا الشخص لتقديمه إلى المحاكمة. وبطبيعة الحال كان هذا الشخص يتعرض للتعذيب، وكان من عادة محكمة التفتيش إلقاء القبض على المتهم أثناء الليل، وكان «المألوفون»، أى الحراس، يأتون إلى بيت المهرطق ويطرقونه بعنف طالبين الدخول، فإذا أبدى أصحاب البيت أية مقاومة يستخدم «المألوفون» العنف لاقتحام المنزل، ثم يطلب «المألوفون» من الضحية ارتداء ملابسه والاستعداد للخروج معهم فورًا. وكانت الظلمة الحالكة تخيم على الحجرة التى يحبس فيها المهرطق ويخترقها بصيص من النور، وكانت هناك فى نهاية الغرفة المعتمة مائدة مغطاة بالقطيفة السوداء تضيئها شمعة وعليها صورة المسيح على خشبة الصليب إلى جانب نسخة من الكتاب المقدس، وكان بجوار المائدة منصة عليها شمعة أخرى، ومن فوق هذه المنصة يتلو

أمين محكمة التفتيش قائمة الجرائم الموجهة ضد المتهم. وكان المحققون يجلسون على المائدة وهم يرتدون أرديتهم البيضاء وأغطية رءوسهم السوداء.. ويقف الحراس خلف المتهم الذى اقتادوه، ويتظاهر كبير المفتشين بعدم الالتفات إلى المتهم والتظاهر بالانشغال بقراءة بعض الأوراق أمامه، وكأن الهدف من هذا بث الرعب فى قلبه، وأخيرًا يضع كبير المحققين الأوراق جانبًا ويبدأ أمين المحكمة بالسؤال عن اسم المتهم وعنوانه وبعض البيانات الأخرى.

ويسأل المحقق المتهم عمَّ إذا كان يعرف السر فى القبض عليه. فيرد المسكين بأنه برىء وطاهر الذيل، ثم يمضى المحقق فى سؤاله إذا كان له أعداء وإذا كان يعترف بانتظام لأب الاعتراف. وكان المحقق يهدف من وراء ذلك الضغط على أعصابه وحمله على الاعتراف والوشاية بأفراد عائلته وجيرانه.

وإذا انهار المتهم فخير وبركة، أما إذا كان المتهم عنيدًا فإن المحقق يتبع معه أسلوبًا آخر يتمثل فى طمأنته بأنه يريد له الخير وأنه إذا اعترف بذنبه وتاب عنه فسوف تغفر له الكنيسة خطاياه، ونفعت هذه الحيلة مع عدد من المتهمين الذين يقعون فى الفخ والذين يدللون على صدق توبتهم بالوشاية بالآخرين. أما إذا استمر المتهم فى عناده وأصر على براءته وأكد أنه لا يعرف أى مهرطقين آخرين فيتم اقتياده إلى زنزانته، ثم يستدعى للتحقيق معه مرة أخرى، وفى حالة تشبث المتهم بعناده يقوم المحقق بالزج به فى السجن بحجة أنه فشل فى إثبات براءته.

عندئذ يلجأ المحقق إلى اتباع أساليب أكثر خبثًا ومكرًا مع المتهم، فيزعم أنه مقتنع ببراءته، ولكنه مضطر للاحتفاظ به فى السجن؛ لأن السجانين ليسوا مقتنعين ببراءته، ثم يرسل المحقق إليه بعض الزوار لزيارته فى السجن بهدف التباسط معه والإيقاع به فى الكلام.

وقد يشم المحقق رائحة الهرطقة فى أى كلمة قد يتفوه بها المتهم عن غير قصد، وأيضًا كان هؤلاء الزوار يحرضونه على الاعتراف بالذنب والندم عليه حتى يأتى الحكم عليه مخففًا، والخافى على المتهم أن حارسًا مختبئًا كان يسمع ما يدور فى المقابلة ويسجله.

وأحيانًا كانت هذه الخدعة لا تنفع لأن المتهم برىء بالفعل، عندئذ تدس له المحكمة سجينًا آخر يشاركه فى نفس الزنزانة يتظاهر بأنه مظلوم ويستغل طول عشرته معه ليوقعه فى الكلام.

وفى حالة فشل كل هذه الأساليب يعاد السجين إلى الغرفة المعتمة ليقف أمام المائدة التى تحمل الصليب ـ الأناجيل ـ الشموع، ولتحطيم أعصابه يغمر المحقق ضحيته بوابل من الأسئلة يخرج من فمه كالقذائف بحيث تربك المتهم وتجعل أقواله مضطربة، ومتضاربة ويغتنم المحقق

هذه الفرصة كى يتهم ضحيته بالكذب ويأمر باقتياده إلى غرفة التعذيب الذى أوصى توركويمادا باستخدامه، علمًا بأن محاكم التفتيش فى بواكيرها أحجمت عن استعماله.

وطبقًا للمادة ١٥ من تعليمات توركويمادا، يجوز للمحققين استخدام التعذيب مع المهرطق إذا كانت هناك أسباب تدعو للشك فيه.. ولكن التعليمات حظرت عليهم إراقة دم المهرطق؛ لأن قانون الكنيسة يمنع المسيحى من إراقة دم أى إنسان، وأيضًا نصت التعليمات على أنه فى حالة وفاة من هم تحت وطأة التعذيب فإنه يجب على المحقق المسئول عن وفاته أن يطلب السماح والمغفرة من كاهن زميل له، وكان التعذيب يمر بخمس مراحل على نحو ما فصلت فى كتابى «محاكم التفتيش».

والجدير بالذكر أن أول من استن نص التعذيب فى قانون محاكم التفتيش هو نيكولاس إيميريك، الذى كان كبير المفتشين فى مملكة أراجون فى القرن الرابع عشر، غير أن المحقق برنارد جوى سبقه فى استحداث نص التعذيب، ومعنى هذا أن توركويمادا استند فى استنان التعذيب إلى آراء السابقين عليه.

واكتشفت الحملة الفرنسية التى هاجمت إسبانيا فى سجن محكمة تفتيش طليطلة آلة تعذيب جديدة وجهنمية لم تعرف من قبل، وهى عبارة عن تمثال على هيئة العذراء مريم غطت مقدمته المسامير والسكاكين وكانت هناك رافعة مركبة فى التمثال فتقوم بتحريك ذراعى التمثال بحيث يحتضنان ضحيته ويضغطان بشدة على جسده حتى تنكسر عظامه.

ويروى المؤرخ الكبير هنرى تشارلس لى فى الجزء الثالث من كتابه الحجة «تاريخ محكمة التفتيش الإسبانية» قصة تعذيب امرأة بائسة تدعى ألفيرا ديا كامبو، غيرت فراش سريرها وامتنعت عن أكل لحم الخنزير يوم السبت، فاقتادها حراس محاكم التفتيش لترى بنفسها آلات التعذيب التى سوف تستخدم معها كى تعترف بهرطقتها، وما إن رأت المسكينة آلات التعذيب حتى أصابها الرعب المروع وقالت لحراسها إنها على استعداد للاعتراف بأى شىء يريدونه منها، ولكن استعطافها ذهب أدراج الرياح، فقد أصر المحقق على أنها تتظاهر بالمسيحية فى حين أنها تمارس الطقوس اليهودية، وعبثًا قالت المرأة إنها لا تحب أكل لحم الخنزير؛ لأنه يجعلها راغبة فى التقيؤ، وأنها غيرت فراشها؛ لأنه اتسخ، وأنها على استعداد للاعتراف بأى شىء يرغبون فيه، غير أن الحراس مضوا فى تعذيبها وأحكموا ربط ذراعها بالحبال، فشعرت أن مفاصلها قد انخلعت من مكانها، وبسبب شدة التعذيب أصيب عقلها بالاضطراب واعترفت بالباطل بأنها تدين باليهودية حتى تتخلص من عذابها، وإمعانًا فى تعذيبها قام الحراس بإحضار طبق ملىء بالفئران وأشعلوا النار بداخله ليلقوا به على بطن المرأة وهى عارية تمامًا فتلسعها النار كما تنهش الفئران جسدها فيجن جنونها.

من الغريب أن نرى محاكم التفتيش ترسل ضحاياها إلى حتفهم، ثم تتنصل من مسئوليتها عن ذلك وتغسل يديها من دمهم المراق، مبررة تنصلها بأن العقيدة المسيحية تحظر على المؤمنين بها سفك دم البشر. ويذكرنا هذا باللعب بالألفاظ التى درجت عليه محاكم التفتيش، فهى تحظر تكرار التعذيب ولا ترى غضاضة فى تعليقه، أى إعادة توقيعه بعد انقضاء فترة زمنية معينة، ومن دلائل هذا التلاعب بالألفاظ قيام محكمة التفتيش بتسليم أى مهرطق تفشل فى هدايته للذراع العلمانية (أو السلطة المدنية)، كى تتصرف معه التصرف المناسب. وبمجرد قيام محكمة التفتيش بطرد المهرطق أو استبعاده من الكنيسة، يصبح هذا المهرطق خارج الكنيسة وبلا أية حقوق مدنية أو سند قانونى يحميه، وتحت رحمة الذراع العلمانى (أى المدنى) تمامًا. وكان الذراع المدنى الذى يتولى إحراق المهرطقين وتوقيع العقاب عليهم يمنى المهرطقين التائبين بإظهار نوع من الرحمة إزاءهم، وكانت أقصى درجات الرحمة هى القيام بخنقهم قبل الإلقاء بهم فى النار حتى يموتوا قبل أن يتلظوا بها. والجدير بالذكر أن المرسوم الذى استنه البابا إينوسنت الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) أمر السلطة المدنية بتنفيذ أوامر الحرق التى تصدرها محاكم التفتيش. وكان هذا العمل البربرى باسم المسيحية، يتم فى ميدان عام يسمى باللغة الإسبانية «عملًا إيمانيًّا» (auto de fe). وكان المحقق فى محاكم التفتيش يتمتع بسلطات واسعة منها إصدار صكوك غفران الخطايا.. ولم يكن لأى مخلوق مهما علا شأنه أى سلطان عليه، فهو يخضع فقط لسلطة البابا، وكان المحقق يستعين بمجموعة كبيرة من الأفراد فى أداء مهام وظيفته مثل القساوسة والمرافقين المألوفين والكتبة، فكان القساوسة ينوبون عن المحقق ويقومون بعمله فى حالة انشغاله بموضوع بالغ الأهمية.

وكانت مهمة المرافقين اصطحاب المحقق فى روحاته وغدواته ومعرفة كل تفاصيل القضايا ومناقشتها مع المحقق وإسداء النصح له أحيانًا.

أما المألوفون فهم الحرس الشخصى للمحقق الذين يحق لهم حمل السلاح للدفاع عنه إذا لزم الأمر، وكان المألوفون يضطلعون بمهمة زيارة المهرطقين فى سجونهم وحثهم على التوبة، وكان «المألوف» يتخفى فى هيئة الناصح الأمين الذى يريد للمهرطق الخير حتى يتمكن من استدراجه فى الكلام وتصيد كلمة قد يزلف بها لسانه، ومعنى هذا أن المحقق استعان بالمألوفين للتجسس على ضحاياه.

وتتلخص وظيفة الكاتب فى تسجيل أسئلة المحققين وإجابة المهرطقين عنها وترجمتها من

اللغات الدارجة إلى اللغة اللاتينية، ويرجع الفضل إلى تسجيلاتهم ووثائقهم فى الكشف عما كان يحدث فى محاكم التفتيش فى عصور الظلام.

وأيضًا كانت محاكم التفتيش تستعين بالأساقفة ورؤساء الأديرة وأحيانًا ببعض المحامين، غير أن علاقة الأساقفة بالمحققين كانت فى الأغلب الأعم متوترة بسبب تنازعهم على السلطة، وخاصة لأن الأساقفة كانوا ينظرون فى أمور الهرطقة والمروق على الدين قبل إنشاء محاكم التفتيش.

وكما كانت الهرطقة درجات كانت سجون المهرطقين تتفاوت فى درجات الراحة، فقد خصص أفضلها للذين يمارسون تعدد الزوجات، كما خصصت السجون الأسوأ منها لخدام محاكم التفتيش المتقاعسين فى أداء واجبهم، أما أسوأها جميعًا ـ وهى تكتظ بالفئران والحشرات ـ فقد خصصت للمهرطقين، ولم تكن جريمة الزنا تخضع لسلطان محاكم التفتيش.

ويذهب اللاهوتى لودوڤيكو أبارامو إلى أن الله كما يصوره سفر التكوين هو أول محقق عرفه العالم، فهو الذى عاقب آدم وحواء على عصيانهما وهو الذى قام بمصادرة ممتلكاتهما.

وقد أعدت محاكم التفتيش لباسًا أطلقت عليه لباس العار، ويعتبر القديس دومينيك أول من استحدث هذا اللباس الخشن للتائبين، ولكن محاكم التفتيش وبخاصة توركويمادا، طورت هذا اللبس بحيث أصبح أكثر تعذيبًا للبدن وأكثر تميزًا للتفريق بينه وبين ملابس الكاثوليك الصالحين.

كانت محاكم التفتيش تعطى المهرطقين التائبين فرصة الرجوع إلى أحضان الكنيسة، وكانت تحكم عليهم بالسير فى مواكب وهم عراة الجسد من الخصر إلى ما أعلاه، يتقدمهم المألوفون أو الحراس، وكان كل تائب يحمل فى يده شمعة غير موقدة كرمز يدل على أن الكنيسة لم تقبل بعد عودته إليها، ولا يسمح له بإضاءة الشمعة إلا بعد قبول الكنيسة عودته إليها. ويقتاد التائبون إلى داخل الكاتدرائية ليستقبلهم المحققون، ثم يقوم التائب بتلاوة أسماء المذنبين والمذنبات وتحديد نوع فريضة التوبة المفروضة عليهم، وكنوع من الكفارة يتعين عليهم السير حفاة الأقدام وعراة الرءوس وقد تجردوا من ثيابهم من الخصر إلى أعلى على مدار ستة أيام جُمع متتالية.. وكانوا يجلدون أثناء السير، كما كان محظورًا عليهم حتى بعد توقيع العقاب عليهم شغل الوظائف العامة ولبس الملابس القشبية والتزين بالحلى والمجوهرات، وأيضًا تعين عليهم إعطاء «خُمس» ممتلكاتهم إلى محاكم التفتيش لاستخدام عائدها فى الحرب ضد المسلمين فى غرناطة، أما إذا انتكس التائب فإن هذه المحاكم تتخلى عنه وتتركه لمصيره الفاجع.

وكان إصدار العمل الإيمانى معناه كما ذكرنا التخلى عن المهرطق وتسليمه إلى السلطة المدنية لتنفيذ عقوبة الموت فيه، وكان هذا الاحتفال المرعب يجذب إليه النظارة من كل حدب وصوب فهو مشحون بالإثارة والرعب، وحتى لا ينسى الجمهور أن العمل الإيمانى عمل دينى فى المقام الأول، فقد كان يبدأ فى صبيحة يوم الأحد المقدس وينتهى بغروب الشمس.

وكان المهرطق المنتكس (أى الراجع عن توبته) يقتاد إلى سراى المحكمة عشية يوم الحرق لتبليغه بتنفيذ عقوبة الموت حرقًا فى اليوم التالى، ومن باب الرحمة كانت المحكمة تطلب من القساوسة المكوث مع المحكوم عليه فى زنزانته طول الليل لهداية روحه الهالكة قبل أن يلقى ربه، وإذا أظهر المحكوم عليه التوبة أمرت المحكمة بخنقه قبل إشعال النار فى جسده حتى توفر عليه الوجيعة والألم، وفيما يلى وصف مفصل لموكب الرعب:

يتقدم الموكب حملة الصليب الأخضر الملفوف بقماش أسود، ويسير خلفه مباشرة رهط المألوفين أو الحراس، ثم القسيس الذى يقيم القداس، ثم سدة مصنوعة من القطيفة وموشاة بالذهب يحملها أربعة أشخاص، وكان القسيس يحمل القرابين أثناء سيره وسط جمهور الراكعين، ثم يأتى عدد أكبر من المألوفين وخلفهم المساجين الذين سبق تعذيبهم أو اللابسين لباس العار. وكان يصحب كل سجين محكوم عليه بالموت حرقًا راهبان من طائفة الدومينيكان يلبسان قمصانًا بيضاء وأغطية رأس ووجه سوداء، وخلف المساجين يسير حاملو الأعمدة الخضراء وقد علقت عليها دمى تصور المتهمين الذين ثبت عليهم تهمة الهرطقة ولكنهم تمكنوا من الهرب من إسبانيا، ثم يأتى دور أجداث المهرطقين التى استخرجت من قبورها، وفى الخلف يسير المحققون تتقدمهم الأعلام وعلى جانبها صورة الشعار البابوى وقد تعانق معه شعار الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا، وعلى الجانب الآخر من الأعلام شعار التفتيش، وفى ذيل الموكب سار صغار الموظفين يحيط بهم الجنود على جانبى الطريق. ويتجه الموكب إلى الميدان الذى تقع فيه الكاتدرائية فى انتظار الذروة الدرامية المتمثلة فى اختيار مكان الحرق. وحرصًا من جانب المحققين الذين يراعون شكليات العدالة، يستدعى كل متهم أمام المحكمة التى تتلو عليه سلسلة الجرائم التى اقترفها، ثم يجىء دور إلقاء موعظة بهذه المناسبة تستغرق فى العادة وقتًا طويلًا بسبب كثرة أعداد المحكوم عليهم. وفى ميدان الكاتدرائية تقام منصات مكسوة بالقماش الأسود وقد تراصت عليها المقاعد المخصصة لجلوس المهرطقين حتى يستطيع جمهور المتفرجين أن يشاهدهم عن كثب. وفى كثير من الأحيان كان الجمهور يتسلى بإلقاء القاذورات على هؤلاء المساجين أو يداعبهم بإشعال النار فى لحاهم أى «بحلقها» على حد القول المازح. وكان الرهبان يجلسون بجوار المساجين يحثونهم على الاعتراف

بذنبهم وإعلان توبتهم. وكانت الأعمدة تقام حول المنصات وفى أسفلها أكوام الحطب التى تنتظر إشعال النار فيها، وكذلك جثث المهرطقين التى أخرجت من قبورها.

وبعد انتهاء الكاهن من القداس يلقى خطابًا مطولًا، ثم يجىء كبير المحققين ليرفع ذراعه إيذانًا بقسمه الولاء لمحاكم التفتيش، وهو قسم يتعين على جمهور الحاضرين تكراره وهم راكعون، كما يتعين عليهم التأكيد على كامل ولائهم للمكتب المقدس، وفى حالة حضور الملك فرديناند وزوجته إيزابيلا الاحتفال، كان يحظر على الجمهور القسم بولائه لمحاكم التفتيش نظرًا لخضوعها خضوعًا مباشرًا لسيطرة البابا، وذلك لأن هذين الملكين أصرا على استقلال إسپانيا عن الكرسى البابوى فى روما. ومن المعروف تاريخيًّا أن بعض الحكام، وعلى رأسهم الإمبراطور شارل، رفض أن يقسم بالولاء لمحاكم التفتيش، ولكن ابنه فيليپ الثانى كان أول من أقسم على ولائه لها، وكانت تلاوة جرائم المهرطقين تبدأ بالجرائم الأخف ثم تنتهى بالجرائم التى تعاقب بالحرق.

وفى مذبح الكاتدرائية يرتفع صوت المحققين ليناشد السلطة المدنية أن تترفق بالمهرطق فلا تريق دمه، كما لو كانت إراقة الدماء أكثر رحمة من الموت حرقًا.

وأخيرًا يقع الاختيار على مكان الحرق فترفع فيه الأعمدة أو الصوارى وفى أسفلها أكوام الحطب، وكثيرًا ما كان المحكوم عليهم بالحرق وهم أحياء يلتمسون التصالح مع الكنيسة والعودة إلى أحضانها الدافئة كى ينعموا بالخنق قبل امتداد اللهب إلى أجسامهم، وبينما أجساد البعض منهم تتلظى بالنار الموقدة ترتفع عقائر الرهبان بالتراتيل والترانيم، وتدق أجراس الكنائس وتنشر رائحة البخور، وكان من النادر أن يمر شهر واحد دون أن يتكرر هذا المنظر المروع الذى تشيب له الولدان.

***

الفصل الثالث

محاكم التفتيش

بين العداوة لليهود والعداوة للمسلمين

قضية لاجارديا الغامضة: سفك دم الأطفال المسيحيين

كان أسمى هدف يتطلع إليه الملك فرديناند هو الاستيلاء على إسپانيا بكاملها وتدمير آخر معاقل المسلمين. ونظرًا لقداسة شخصية توركويمادا للدور الذى لعبه فى الحرب ضد المسلمين، فقد كان من الطبيعى أن يتمتع بالسطوة والنفوذ لدرجة السيطرة أحيانًا على الملك والملكة، فضلًا عن أنهما واجها بعض المشاكل داخل مملكتها، ففى عام ١٤٨٤ كانت كاترين ملكة ناڤار الشابة تزمع الزواج من نبيل فرنسى شاب يدعى چان دالبرت، الأمر الذى شكل نوعًا من التهديد لاستقلال مملكة ناڤار التى كانت دائمًا مطمع الفرنسيين. وبطبيعة الحال انزعج فرديناند وزوجته من هذا الزواج وتغلغل النفوذ الفرنسى فى مملكتهما، وعهدا إلى الراهب توماس توركويمادا بالتصدى لهذه المشكلة.

تميز حكم إيزابيلا لمملكتها كستيلا بفرض النظام واستتباب الأمن والقضاء على الجريمة، وإرغام أشراف البلاد على نبذ المنازعات وحلها عن طريق الالتجاء إلى القانون. واتبعت إيزابيلا سياسة مستقلة، حيث رفضت تدخل بابا روما فى شئونها، الأمر الذى أثار غضبه منها، ومما يدل على إصرارها على اتباع سياسة مستقلة عن الكنيسة الخاضعة لبابا روما، رغم شدة إيمانها بها قبل الحادثة التى وقعت فى مدينة تروكسيلو الإسپانية عام ١٤٨٦، حيث ارتكب قسيس إسپانى خطيئة غير خطيرة فقامت السلطة المدنية (أو الذراع العلمانية) بالزج به فى أحد السجون، وعز على رجال الكنيسة أن تنتزع منهم السلطة المدنية الحق فى محاسبة واحد منهم، وطالبوا بتسليمه إلى الكنيسة كى تحاكمه، ولكن القاضى المدنى رفض أن يجيبهم إلى طلبهم، ولجأ القساوسة والوعاظ إلى تهييج عامة الشعب الذين هاجموا السجن وأطلقوا سراح القسيس السجين وعدد من السجناء الآخرين. ولكن الملكة إيزابيلا استنكرت أعمال الشغب ورفضت التخويف، ورأت ضرورة إخماد هذا التمرد وتعزيز السلطة المدنية، ولهذا أرسلت جنودها إلى تروكسيلو لإعادة النظام إليها والقبض على زعماء الشغب والتمرد، وقدمتهم للمحاكمة فحكم عليهم بالإعدام كما حكم على المبشرين المحرضين بالنفى من إسپانيا، وبذلك وضعت حدًّا لتدخل الكنيسة فى شئون الدولة والأمور المدنية، وكان هدفها من وراء ذلك تحجيم النفوذ الباباوى فى إسپانيا.

قلنا إن محاكم التفتيش فى مملكة كستيلا صادرت ممتلكات المهرطقين وأدخلت أموالًا طائلة إلى خزانة الملك فرديناند، مما دعم الحرب التى شنها على غرناطة آخر معاقل المسلمين فى إسپانيا. وفى حين كانت محاكم التفتيش فى مملكة كستيلا قوية ومتينة، كانت محاكم التفتيش فى أراجون ضعيفة وهزيلة، ولأن الملكة إيزابيلا كانت تطمع فى توحيد إسپانيا والسيطرة على مقاليد الحكم فيها، فإنها رأت فى تدعيم توركويمادا وتقوية محاكم التفتيش السبيل إلى هذه الوحدة المرجوة، ومن ثم سعى فرديناند إلى بعث محاكم التفتيش فى أراجون وإحيائها. وفى أبريل عام ١٤٨٤ اجتمع البرلمان فى مدينة تاراكونا برئاسة الملك فرديناند الذى اصطحب معه الراهب توركويمادا، وأعلن عزمه على إنشاء محاكم تفتيش فى أراجون فى مثل قوة محاكم تفتيش كستيلا، وحتى يبين أنه جاد فى عزمه عين توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم تفتيش أراجون، وأصدر أوامره الملكية لأهلها بتقديم العون لها. ولم يضيع توركويمادا أى وقت، فقام على وجه السرعة بتجنيد اثنين من المحققين فى أراجون هما بيدور أربويز دى إبيلا كاهن كنيسة سرقسطة، والراهب الدومينيكانى جاسبار جاجلار.

ولكن أهل أراجون، وخاصة أثرياء اليهود المتحولين إلى المسيحية، رفضوا أن يعيشوا فى جو الرعب الذى عاش فيه أهل كستيلا، ولهذا قاموا بإرسال وفدين أحدهما إلى البابا والآخر إلى الملك فرديناند، وطالبوا باستمرار العمل بنظام أراجون القديم وعدم تطبيق تعليمات توركويمادا عليهم، غير أن البابا والملك رفضا إجابة هذين الطلبين، وبدأ المحققان فى ممارسة عملهما بكل جد وحماس، وكان حصاد هذا الحماس حرق عدد هائل من أهل سرقسطة فى شهرى مايو ويونيو ١٤٨٥. ويبدو أن أهل أرجوان انتقموا لأنفسهم بدس السم لأحد المحققين، جاسبار جاجلار، وكانت النتيجة أن زميله المحقق بيدور اتخذ سبيل الحذر فى مأكله ومشربه، ولم يأمن على حياته فسار محاطًا بحرسه الخاص ولابسًا درعه الواقى. وشعر اليهود الأثرياء الذين اعتنقوا المسيحية بالصدمة عندما قامت محكمة التفتيش فى سرقسطة بإلقاء القبض على واحد من أبرز أغنيائها هو ليوناردو إيلى، ورغم شدة وقع هذه الصدمة عليهم، فقد صمم نفر من وجهاء القوم وأصحاب النفوذ على المقاومة، فقام واحد من أهم اليهود المتحولين إلى المسيحية واسمه چوان بيدور سانشيز بتشكيل جبهة معارضة مكونة من نفر من رفاقه البارزين، وعقدت هذه الجبهة اجتماعاتها فى بيت يهودى متحول إلى المسيحية قريب من الملك فرديناند واسمه لويس سانتا نجيل، ورأوا أن السبيل الوحيد للتخلص من هول محاكم التفتيش هو التخلص من المحقق بيدور أريويز، وعرضوا مكافأة قدرها خمسمائة فلورين لكل من يتطوع لقتل هذا المحقق، فتقدم ستة رجال من بينهم رجل حاقد وموتور اسمه چوان دى إسبراندو يرغب فى الثأر لأبيه الذى عذبته محاكم التفتيش، غير أن المحقق

بيدور أريويز كان على يقين من كراهية الناس له، الأمر الذى جعله يتصرف دومًا بحذر وجعل من العسير للغاية اغتياله والتخلص منه. وأخيرًا اهتدى المتآمرون إلى فكرة الاختباء فى الكاتدرائية التى يعلمون أن بيدور لا بد أن يأتى إليها لإقامة قداس منتصف الليل، وانتهز المتآمرون عتمة الكنيسة وانشغال المحقق فى الصلاة على أصوات المنشدين والمرتلين ونجحوا فى القضاء على حياته، إذ لم تمهله جراحه البالغة أكثر من نهارين وليلتين ومات يوم ١٧ ديسمبر ١٤٨٥، ولكن اغتيال هذا المحقق أتى بعكس النتائج المرجوة؛ حيث إنه أثار الشعب ضد اليهود القتلة بدلًا من إثارته ضد محاكم التفتيش، وبات من الواضح أن الشعب فى سرقسطة على وشك الانخراط فى أعمال الشغب لولا أن ابن الملك فرديناند غير الشرعى الذى عينه والده رئيس أساقفة سرقسطة وهو فى السابعة عشرة من عمره كان موجودًا بالمدينة. ونزل هذا الابن غير الشرعى شوارعها ليواجه بنفسه الجمهور المتمرد ونصحهم بالانصراف فى هدوء، وتعهد بأنه سوف يقيم العدل بنفسه.

وفور علم توركويمادا بمقتل بيدور، قام بتعيين ثلاثة محققين آخرين دون إبطاء، هم الرهبان چوان كولفيرا، وبيدور دى مونتروبيو؛ وألونسو دى ألاركون. واحتمى هؤلاء المحققون الثلاثة فى قلعة الجافيريا يحيط بهم الحراس. وعلى الرغم من أن توركويمادا كان سعيدًا بتمكن ابن الملك الشاب من إخماد التمرد وقمع الشغب، فإنه كان يرغب فى إثارة مشاعر أهل سرقسطة ضد اليهود المتحولين إلى المسيحية، وتم القبض على الكثيرين وتعذيبهم، وبدأ التحقيق معهم لمعرفة الجناة، ولحسن حظ المتآمر چوان بيدور سانشيز أنه تمكن من الهرب من إسپانيا، ولكن شركاءه فى المؤامرة أُحرقوا أحياء ومعهم دمية تمثل سانشيز الهارب. وإمعانًا فى التنكيل باسبراندوا عوقب بالسير فى الشوارع المؤدية إلى الكاتدرائية وهو ينوء تحت حمل ثقيل، وما إن وصل إلى الكاتدرائية حتى قُطعت يداه ثم عُلق على المشنقة، ولكنه أنزل من عليها قبل أن يموت لاستئصال أعضائه التناسلية، ثم حملته عربة إلى مثواه.

وهكذا تم تصفية المقاومة ضد إقامة محكمة تفتيش فى سرقسطة، وأخذت هذه المحاكم تعمل بنفس الجد والنشاط الذى عملت به فى مملكة كستيلا، ونفذت العديد من أعمالها الإيمانية القاضية بالتخلص من حياة المهرطقين. وعندما أدرك أحد اليهود المتحولين إلى المسيحية أن مملكة أراجون لم تعد مكانًا آمنًا، هرب منها واحتمى منها بابن ملكة ناڤار، أنفانت جايم. وحتى تظهر محاكم التفتيش سطوتها، قامت بالقبض على ابن ملكة ناڤار وقدمته إلى المحاكمة بتهمة عرقلة أعمال المكتب المقدس، وهى تهمة تستوجب اتهام مرتكبها بالهرطقة. وبعد ثبوت التهمة عليه زج به فى السجن وحكم عليه بالجلد أثناء سيره حول الكنيسة. كذلك ألقت القبض على ابن أحد المتآمرين

اسمه جاسبار دى سانتا كروز الذى كان قد توفى قبل أن تتمكن محاكم التفتيش من إنزال العقاب به؛ لأنه ساعد والده على الهرب إلى تولوز، وألقى القبض على هذا الابن وطلب إليه التكفير عن ذنوبه بالذهاب إلى تولوز للتنقيب عن جثة والده وحرقها، واضطر الابن إلى تنفيذ هذا المطلب القاسى على النفس حتى يتمكن من تفادى الحرق حيًّا. والجدير بالذكر أن الكنيسة الكاثوليكية اعتبرت المحقق المغتال بيدور أريويز شهيدًا، وقام البابا پيوس التاسع بتنصيبه قديسًا فى القرن التاسع عشر، والذى لا شك فيه أن محاكم التفتيش فى إسپانيا كانت ستفقد الكثير من جبروتها وسطوتها لو أن شعب أراجون استمر فى التمرد عليها والثورة فى وجهها.

وتتمثل ذروة الاضطهاد الذى مارسته محاكم التفتيش الإسپانية عام ١٤٩٠ (أى فى نفس الوقت الذى اكتشف فيه الرحالة المعروف كريستوفر كولمبوس القارة الأمريكية ١٤٩٢) فى قيام توركويمادا بطرد جميع اليهود من إسپانيا.

بدأت قصة طرد اليهود من الأراضى الإسپانية برحلة قام بها يهودى متحول إلى الدين المسيحى اسمه بنيتو جارسيا، اقتضى منه عمله كتاجر صوف متجول الانتقال من مكان إلى مكان، وشاء حظ جارسيا السيئ أن يحل عليه ظلام الليل وهو فى الطريق فيضطر إلى المبيت فى حانة صغيرة فى قرية أستورجا، ونظرًا لازدحام الحانة لم يكن ممكنًا لهذا التاجر أن يستأجر لنفسه حجرة مستقلة مما اضطره إلى المبيت مع جماعة من اللصوص وقطاع الطرق الذين لاحظوا هندامه الحسن فقرروا سرقته أثناء النوم، وبينما هم منهمكون فى التنازع والاستيلاء على محتويات حقيبته لفت نظرهم وجود خبز بلا خميرة يستخدم قربانًا فى المناولة، وتعجب اللصوص من وجود هذا القربان فى حوزة اليهودى فاستنتجوا أنه ارتكب معصية كبيرة، وفى غمرة انفعالهم نسى اللصوص هدفهم الأصلى وهو السرقة وانقضوا على جارسيا وأصروا على اقتياده للقاضى وهو رجل على علاقة وثيقة بمحاكم التفتيش اسمه الدكتور بيدور دى فيلادا، كانت محاكم التفتيش قد وعدت بترقيته إلى منصب محقق، وأراد الرجل أن يثبت جدارته فطلب من جارسيا الاعتراف بأنه يمارس الطقوس اليهودية وأنه سرق الخبز غير المخمر لهذا الغرض الشرير، وارتسمت إمارات الرعب على وجه جارسيا فقد كثرت اتهامات المسيحيين الإسپان لليهود بأنهم يمارسون شعائر الدين اليهودى سرًّا ويخطفون الأطفال المسيحيين ويسفكون دماءهم من أجل استخدامها فى إقامة هذه الشعائر. وعبثًا أنكر جراسيا هذا الاتهام وعبثًا أصر على براءته. فقد أمر الدكتور بيدور دى فيلادا بجلده مائتى جلدة كبداية. وعندما استمر جارسيا فى الإنكار، طبقوا عليه عقوبة التعذيب بالماء (انظر كتابى «محاكم التفتيش»)، ولم يتحمل الرجل التعذيب فانهار واعترف بارتكاب كل التهم المنسوبة إليه،

اعترف بأنه تعمد وأنه تحول إلى المسيحية ولكنه انتكس وعاد إلى الدين اليهودى، وأيضًا اعترف بأنه قبل خمسة أعوام التقى بيهودى آخر تحول إلى المسيحية اسمه چوان دى أوسانا دأب على ممارسة الطقوس اليهودية ونصح جارسيا بالاقتداء به ولكن فى حيطة وحذر. واعترف الرجل بأنه سعى إلى التمويه على المسيحيين بإرسال أبنائه إلى الكنيسة حتى لا يشك فيه أحد، وأنه اعترف إلى قسيس بذنوب لم يرتكبها مطلقًا، وبأنه كان يسخر من المناولة، ويبصق سرًّا على الكرسى البابوى. وكذلك اعترف بأن آخرين يشاركونه نفس المعتقدات مثل موسيه، ويوسيه وأبيهما كافرانكو. وعلى الفور قام فيلادا بالقبض على كافرانكو الذى كان فى الثمانين من عمره وابنه يوسيه البالغ من العمر عشرين عامًا، وكان من حسن حظ موسيه أنه مات قبل القبض عليه. واقتيد جميع المقبوض عليهم إلى سجن فى مدينته سيجوفيا، ولكن يوسيه سقط مريضًا أثناء سحبه فتجرأ وطلب أن يعوده طبيب يهودى حتى يستطيع أن يفهم لغته، كما طلب إحضار حبر يهودى للصلاة من أجله. وتظاهرت محكمة التفتيش بأنه لا تستطيع أن ترفض طلب رجل يحتضر، وكلفت أحد جواسيسها بزيارته فى زنزانته وإظهار العطف الشديد من أجل استدراجه لمعرفة أقرانه المهرطقين.

وجاء الطبيب يرافقه راهب دومينيكانى اسمه ألونسو إنركويز متخفيًّا فى هيئة حبر يهودى، تظاهر هذا الراهب بالعطف عليه ونجح فى خداعه تمامًا، وفى مرضه لم يكن يوسيه يدرك ما يقول فقد أدلى باعتراف بالغ الخطورة وفحواه أنه تم القبض عليه وبحوزته خبز غير مختمر من أجل استخدامه فى طقس يهودى يقتضى منه سفك دم مسيحى. وعندما استرد يوسيه عافيته تمالك حواسه ورفض أن يكرر اعترافه أمام الراهب المدسوس عليه أو يضيف عليه شىء آخر. ونظرًا لأن الأمر كان جد خطير، فقد تم تبليغ توركويمادا نفسه به، وكانت فرصته الذهبية فقد كان يأمل فى طرد جميع اليهود من إسپانيا دفعة واحدة، وإذ بهذه الفرصة النادرة تسنح له، وكل ما كان يحتاج إليه هو إقناع الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بالأخطار الناجمة عن الوجود اليهودى فى إسپانيا، ولم يكن هذا بالأمر السهل.

أشرف توركويمادا بنفسه على التحقيق مع يوسيه الذى وشى به بنيتو جارسيا، واعترف يوسيه بأنه توجه إلى بلدة لاجارديا منذ ثلاثة أعوام مضت لشراء القمح من عائلة من الطحانين، ودار الحديث بينه وبين البائعين حول استخدام الخبز غير المختمر فى إقامة الفصح اليهودى وبعض العادات اليهودية الأخرى، وأخبره الأربعة طحانين الإخوة أنهم اختطفوا طفلًا مسيحيًّا وقاموا بصلبه تمامًا كما صُلب المسيح من قبل على خشبة الصليب، وبعد إدلاء يوسيه بهذا الاعتراف الرهيب، تركته محاكم التفتيش معلقًا لمدة ثلاثة أشهر يضرب أخماسًا فى أسداس بشأن ما سيفعله

المحققون معه، وكان ذلك عام ١٤٩٠، وبعد فترة انتظار طويلة مرهقة للأعصاب وجهت إليه محاكم التفتيش عدة اتهامات أولها قوله إن المسيحية دين زائف وإن اليهودية دين يجدر بالمسيحيين أن يعتنقوه، وثانيها أنه خالط أناسًا قاموا بصلب طفل مسيحى فى يوم مقدس هو يوم الجمعة الحزينة، وثالثها أنه سرق القربان لاستخدامه فى أعمال السحر والشعوذة والزراية بالسيد المسيح.

وسمحت المحكمة لاثنين من المحامين بالدفاع، ورفض المحامين الاتهامات باعتبارها غامضة، وطلبت المحكمة مهلة مدتها ثلاثين يومًا لإثبات التهمة عليه، ورغم فشل الادعاء فى إثبات التهمة على يوسيه، فقد استمر حبسه فى زنزانة انفرادية وكادت العزلة تقضى على عقله، وحتى تستدرجه محكمة التفتيش دست عليه بنيتو جراسيا ووضعته فى زنزانة أسفل زنزانته كى يسهل عليها التجسس عليه، وتعمدت أن تترك شرخًا أو فجوة فى السقف بحيث يمكن للسجينين تبادل الحديث، وفى نفس الوقت اختبأ بعض الكتبة ليسمعوا الحديث الدائر بين الرجلين ويقومون بتسجيله، وذكر بنيتو جراسيا أن المحكمة قبضت على والده وقامت بتعذيبه قبل إحراقه ومن ثم فهو بائس فى حياته، ثم طلب من يوسيه أن يزوده بإبرة أو سكينة تساعده على إخفاء ختانه أى لإخفاء أنه يهودى، وحذره يوسيه من أن هذا خطر على حياته، وبالنظر إلى أن الشاب يوسيه كان يهوديًّا فلا جناح عليه فى الاحتفاظ بالخبز غير المختمر، ثم سأل بنيتو عن قطعة الخبز غير المختمر التى اشتراها (أى بنيتو) منه، وإذا كانت محكمة التفتيش قد اكتشفت وجودها معه، عندئذ أخذ بنيتو يلعن اليوم الذى تخلى فيه عن الشريعة الموسوية ليتحول إلى المسيحية فقد عاقبته محكمة التفتيش بتغطيسه فى الماء، وأعلن بنيتو أنه يتمنى أن يموت يهوديًّا كما كان، وكل هذا الحديث قام الكتبة بتسجيله.

بعدئذ استدعت المحكمة يوسيه وظلت تستجوبه حتى دب الإعياء فى أوصاله، فاعترف بأنه سمع طبيبًا يهوديًّا يقول إن اليهود حرضوا بنيتو جارسيا على سرقة القربان المقدس (أو الخبز غير المختمر) وإنه استولى على مفاتيح كنيسة لاجارديا حتى يتمكن من ارتكاب جريمته، وأضاف يوسيه أن الشكوك حامت حول بنيتو فألقى القبض عليه لمدة يومين، ولكن السلطات أطلقت سراحه لعدم ثبوت التهمة ضده، وذكر يوسيه أنه يعتقد أن أصدقاء بنيتو أرادوا الحصول على القربان المقدس لإقامة بعض الشعائر اليهودية. وتبين للمحققين أن يوسيه سوف يمدهم بمعلومات وفيرة، قال إن اليهود يصنعون القربان من الخبز غير المختمر كى يحموا أنفسهم من المسيحيين. ومما زاد الطينة بلة أن يوسيه اعترف بأن اليهود صنعوا تعويذة وضعوها خارج قرية لاجارديا، وأضاف أنهم انتزعوا قلب طفل مسيحى واستخدموه لصنع هذه التعويذة.

وأخيرًا قال يوسيه إنه على استعداد للإفصاح عن كل ما حدث شريطة الإفراج عنه وعن والده المحبوس، ووعدته محكمة التفتيش بالعفو عنه إذا قال الحقيقة، عندئذ قال إنه شاهد داخل الكهف المشار إليه قربانًا وقلب إنسان، وبطبيعة الحال سأل المحققون عن صاحب القلب المستخدم فأجاب بأنه قيل له إن القلب انتزع من جسد طفل مسيحى بعد صلبه، عندئذ قرر المحققون استدعاء والد يوسيه العجوز كافرانكوا من السجن، وقالوا له إن ابنه اعترف بكل ما فعله الضالعون فى المؤامرة وأصاب الفزع الرجل المسن فأكد حقيقة ما ذكره الابن وأنه (أى الرجل العجوز) شاهد بنفسه عملية صلب الطفل بعد أن وضعوا على رأسه إكليلًا من الشوك.

فى تلك اللحظة تهلل المحققون؛ لأنهم وضعوا أيديهم على فرصة العمر: قضية سفك دم طفل مسيحى وصلبه واستخدام هذا الدم فى إقامة الشعائر اليهودية.

استغرق التحقيق فى هذه القضية تسعة أشهر كاملة عقدت المحكمة بعدها جلسة المحاكمة، ولكن يوسيه أثناء المحاكمة رفض أن يؤكد ما سبق أن اعترف به، فأرسلته المحكمة إلى حجرة التعذيب فاعتراه الرعب وصرخ قائلًا إنه سوف يعترف بكل شىء، الأمر الذى أحرج محاميه فانسحبا من القضية. وهكذا ثبتت التهمة على الشاب فتخلت محكمة التفتيش عنه، أى أنها أسلمته إلى الذراع المدنى بعد أن أصدرت أعمالًا إيمانية (أى أحكامًا بالإعدام) ضد جميع المتآمرين، وبمجرد أن شاهد المحكوم عليهم الحطب تحت أقدامهم أعلن ثلاثة من اليهود المتحولين إلى المسيحية، وهم چوان فرانكو وچوان دى أوسانا وبنيتو جراسيا توبتهم ورغبتهم الصادقة فى العودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، ولهذا أظهرت السلطة المدنية الرحمة بهم فقامت بخنقهم قبل إلقاء أجسادهم فى اللهب.

والغريب أن كافرانكوا وابنه يوسيه أظهرا شجاعة منقطعة النظير، فأعلنا أنهما يهود وسيظلان يهودًا حتى الرمق الأخير، وأكدوا أنهم لن يتحولوا إلى أى دين آخر، وبسبب تشبثهما بدينهما قام الحراس بتمزيق لحم أذرعتهما وأفخاذهما بملقاط ملتهب فى لون الجمر حتى لا يتمتعا بميتة سريعة ومريحة، وعندما خبت ألسنة اللهب بعض الشىء امتنع الحراس عن إشعالها حتى يكون موتهما بطيئًا وأليمًا إلى أقصى حد.

والقارئ لتاريخ القرون الوسطى يعلم أن حكاية سفك دم طفل مسيحى وانتزاع قلبه لإقامة الشعائر اليهودية ليست جديدة على الإطلاق (راجع كتابى «الهرطقة فى الغرب» دار سينا للنشر). المهم هنا أن نذكر أن محاكم التفتيش فى إسبانيا التى زعمت أن اليهود استخدموا القربان المقدس

وقلب الطفل، اقتنعت بأنهم كانوا يقومون بحرقها لتحويلها إلى رماد وينثرونه فى الأنهار والآبار لتسميمها بهدف قتل المسيحيين.

والنتيجة أن توركويمادا الرئيس الأعلى لمحاكم التفتيش استطاع تأليب الشعب الإسپانى ضد اليهود، الأمر الذى أدى إلى اندلاع أعمال الشغب ضدهم، ومن ثم نفيهم، وبهذا نجح توركويمادا فى تنفيذ خطته الرامية إلى طرد جميع اليهود من إسپانيا.

الحرب على المسلمين

وفى عام ١٤٨٧ غادر الملك فرديناند مدينة قرطبة ليشن حملة عسكرية على مدينة فيليز بالقرب من مدينة مالاجا المسلمة التى تلى فى أهميتها مدينة غرناطة. وكان المسلمون فى إسپانبا مقاتلين أشداء غير أن تفككهم مكن المسيحيين منهم، وأبدى فرديناند فى حربه على المسلمين شجاعة تصل إلى حد التهور، وعندما نصحه المحيطون به باتخاذ أسباب الحكمة قال: «إننى لا أستطيع أن أقيم الاعتبار لفرص نجاتى طالما أن رعاياى يضحون بحياتهم من أجلى»، وهو الأمر الذى جعله يحظى بشعبية كاسحة بين الجنود الإسپان، وبسبب هذه الروح المقدامة سقطت فيليز فى يده وكادت مدينة مالاجا تدين له. كانت مدينة مالاجا واحدة من أغنى المدن تحت الحكم الإسلامى، فهى زاخرة بالحدائق الغناء وأشجار الزيتون والبرتقال، والنافورات المتلألئة، فضلًا عن رواجها التجارى بسبب وقوعها على شاطئ البحر. ولأن المسلمين كانوا يتحصنون فى مالاجا لم يكن من السهل على المسيحيين الاستيلاء عليها، وزاد من تحصينها تلك القلاع التى بناها المسلمون فيها، وذلك الحائط العظيم الذى بنوه حولها.

ونما إلى مسامع الملك فرديناند أن تجار مالاجا الأثرياء فضلوا الاستسلام الفورى خوفًا على ممتلكاتهم من الضياع، ولهذا فكر هذا الملك فى التفاوض معهم، ولكن المسلمين أبوا التفاوض وأصروا على الذود عن المدينة حتى النهاية، فبدأ المسيحيون فى حصار المدينة لمدة ثلاثة أشهر، وواجه جيش فرديناند مشكلتين مستعصيتين هما نقل ماء الشرب اللازم للجنود وانتشار الطاعون فى القرى المجاورة. وأرادت الملكة إيزابيلا أن ترفع روح الجيش المعنوية فلحقت بزوجها فى حومة الوغى، وما إن رآها الجنود حتى اشتط حماسهم، وكما أسلفنا كانت الخلافات بين قواد المسلمين سببًا فى ضعفهم فى حين كانت الوحدة التى أظهرها المسيحيون فى مملكتى أراجون وكستيلا سببًا فى انتصارهم، ويقال إن البارود استخدم لأول مرة فى أوروپا فى حصار ميناء مالاجا. ولما أحس المسلمون أنهم على وشك الاندحار عرضوا التفاوض مع فرديناند، ولكنه هذه المرة رفض قائلًا

إن زمن التفاوض ولى وانقضى، وطلب من المسلمين التسليم دون قيد أو شرط، فهدد المسلمون باستمرار المقاومة، وقتل أسراهم من المسيحيين. ولم يكترث فرديناند بهذا التهديد ومضى فى حصاره للمدينة والهجوم على القلاع، علمًا منه بتصدع جبهة أعدائه وتشردهم، الأمر الذى أدى إلى هزيمتهم، وأخيرًا دخل الملك فرديناند والملكة إيزابيلا المدينة، حيث حررا المسيحيين من العبودية والأسر، ثم قام الملك بأسر جميع سكان مالاجا المسلمين، واستدعاهم إلى فناء عظيم يعرف بفناء القصبة، وقال لهم إن ثلثهم سوف يرسلون إلى أفريقيا لاستبدالهم بالأسرى المسيحيين هناك، أما ثلثا المسلمين الباقين فسوف يؤول نصفهم إلى مملكة الدولة ويستخدم الملك والملكة النصف الآخر كهدايا يقدمانها إلى أصدقائهما الأجانب فى نابولى والبرتغال وأوروبا. وكان أوفر المسلمين حظًّا أولئك الذين أرسلهم فرديناند إلى روما؛ حيث إنهم عوملوا بقدر ملحوظ من الرأفة فى عهد البابا إينوسنت الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢)؛ ولكى ندرك الفرق بين رأفة الكرسى البابوى فى روما معهم أن البابا ألكسندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣) اكتفى بمناقشة ثمانين يهوديًّا منتكسًا ممن طردتهم إسپانيا من أراضيهم بأن ألبسهم فقط لباس التوبة الخشن ثم أدخلهم فى كنيسة سانتا ماريا وبلد منيرفا لطلب المغفرة ليعودوا بعد ذلك إلى منازلهم ويعيشوا فيها كمواطنين عاديين. حدث هذا فى عهد البابا ألكسندر السادس ذلك السفاح القاتل والشهوانى العربيد الذى يحلو له مواقعة محظياته فى حفلات صاخبة ماجنة، فى حين أن محاكم التفتيش تصرفت بوحشية بالغة وعلى نحو دموى فى عهد توركويمادا المشهور بطهره وقداسته وزهده فى الحياة الدنيا.

كان سقوط ميناء مالاجا فى يد المسيحيين كارثة للمسلمين فى إسپانيا؛ حيث إن عاصمتهم غرناطة اعتمدت فى حياتها على هذا المرفأ للتزود بالمؤن. فضلًا عن أن جميع سكان مدينة مالاجا أصبحوا برمتهم أسرى فى يد المسيحيين، وهكذا باتت غرناطة مهددة بالسقوط، غير أن الحرب ضد المسلمين توقفت بعض الوقت بسبب الاحتفالات التى أقامتها الملكة إيزابيلا عام ١٤٩٠ بمناسبة زواج ابنتها (إيزابيلا الابنة) من ألونسو ولى عهد البرتغال، وبعد انتهاء الاحتفالات الملكية عاد فرديناند وزوجته إلى استئناف الحرب للاستيلاء على غرناطة التى أبلى المسلمون بلاء حسنًا فى الدفاع عنها، وأدرك الملك أن غرناطة لن تكون لقمة سائغة وأنها لن تستسلم بسهولة، ولهذا قرر فرديناند حصار مدينة بالقرب من غرناطة يمكن لجيشه أن يتمركز فيها لفترة طويلة حتى يحين الوقت المناسب لخوض المعركة. وبسبب الفرقة فى صفوف المسلمين شعروا باليأس؛ ولذا طلب قائدهم أن يتفاوض سرًّا مع الملك، الأمر الذى أثار حفيظة أهل غرناطة ضده. وانتهز فرديناند هذه الفرصة للانقضاض على المسلمين حين تأكد انقسامهم على أنفسهم، وأخيرًا سقطت غرناطة فى أيدى المسيحيين فى ٢ يناير ١٤٩٢.

وبعد أن استولى الملك فرديناند وإيزابيلا على غرناطة، أصدرا أمرهما لليهود بمغادرة إسبانيا إلا إذا قبلوا العماد والتحول إلى الدين المسيحى، ولكن إحقاقًا للحق فعل الملك والملكة هذا بعد كثير من التردد، فهما يعلمان جيدًا مدى ثراء اليهود وإمكانية استفادتهما من هذا الثراء، غير أن ترددهما ما لبث أن تلاشى حين أصابت البلاد الهستيريا الدينية نتيجة ذيوع قصة لاجارديا وقيام اليهود بسفك دم الأطفال المسيحيين من أجل إقامة شعائرهم الدينية، وفى هذا الجو المشحون بالهستيريا ضد اليهود، تمكن توركويمادا ـ كما أسلفنا ـ من إقناع الملك والملكة بضرورة طرد اليهود من إسپانيا، وقد تم لتوركويمادا ما أراد بموجب المرسوم الملكى الصادر بطردهم فى يوم ٣١ مارس ١٤٩٢ وأرسل توركويمادا الرهبان الدومينيكان ليوضحوا لليهود فى محال إقامتهم أنهم يستطيعون الاستمرار فى البقاء فى إسپانيا والاحتفاظ بممتلكاتهم فى حالة اعتناقهم الدين المسيحى.

ومن جانبهم سعى اليهود إلى رشوة الملك بمبلغ كبير يصل إلى ثلاثين ألف دوقة لإلغاء أمر الطرد، وكاد فرديناند وإيزابيلا أن يقبلا الرشوة لولا تخويف توركويمادا الشديد لهما وتذكيرهما بأنهما يحذوان حذو يهوذا الأسخريوطى فى خيانة السيد المسيح، وكذلك حظر توركويمادا على الإسپان تقديم أية مساعدة لليهود فى محنتهم باعتبارها إساءة إلى الكنيسة.

وهكذا تشتت اليهود فذهب بعضهم إلى البرتغال، حيث قدم إليهم الملك يوحنا الثانى ملك البرتغال ممرًا آمنًا إلى القارة الأفريقية نظير مبالغ من المال. وذهب البعض حاملين معهم وباء الطاعون إلى إيطاليا ليحصد حياة الكثيرين منهم ومن الإيطاليين أنفسهم، كما أن بعض اليهود توجهوا إلى مدينة چنوا التى حظرت قوانينها بقاء أى يهودى على أراضيها لمدة تزيد على ثلاثة أيام، وكذلك تشتت يهود آخرون فى أرجاء العالم المختلفة مثل تركيا وفرنسا والشرق الأدنى، ولكن قلة منهم ذهبوا إلى إنجلترا، وفى طريق بعضهم إلى مدينة فاس بالمغرب تعرض اليهود لهجوم قطاع الطرق عليهم فسلبوا أموالهم واغتصبوا نساءهم، وأمام هذه الأخطار فضل عدد كبير منهم الذهاب إلى مستعمرة أفريقية تدين بالمسيحية يقال لها أركيلا، حيث اعتنقوا الدين المسيحى عن كره. حتى المسلمين الذين هزمهم فرديناند فى الحرب وجدوا أنفسهم –شأنهم فى ذلك شأن اليهود ـ مضطرين إلى اعتناق المسيحية.

يتضح لنا مما تقدم أن اليهود فى إسپانيا اضطروا إلى اعتناق المسيحية مرتين: مرة بعد عام ١٣٩١ عندما اندلعت أعمال الشغب الجماهيرى ضدهم، ومرة أخرى عندما أصدر الملك فرديناند عام ١٤٩٢ أمرًا بطردهم جميعًا من البلاد. ولكن هذا التحول إلى المسيحية لم يحل المشكلة ولعله خلق مشاكل أكثر واجهتها إسپانيا المسيحية، فالتحول فى كثير من الحالات لم يكن نتيجة اقتناع

بل من أجل الاحتفاظ بالأموال والممتلكات، ثم إن هؤلاء المسيحيين الجدد وجدوا صعوبة بالغة فى التأقلم مع الطقوس والشعائر المسيحية الجديدة عليهم، ولم يكن من السهل عليهم أن ينسوا ممارستهم اليهودية القديمة، وبالذات تلك الممارسات الخاصة بنوع الغذاء الذى تعودوا عليه، فلا عجب إذا رأينا تحولهم إلى المسيحية مثار الريبة والشك، وزاد من حنق المسيحيين الإسپان على اليهود المتنصرين أنهم كانوا بفضل ثرائهم ونفوذهم يحتلون أرفع المناصب فى المجتمع الإسپانى، ففى مدينة كوينكا وحدها فى أواخر القرن الخامس عشر، بلغت نسبة العائلات اليهودية المتحولة إلى المسيحية والتى تحتل أرفع المناصب فى مجلس المدينة ٨٥٪ من إجمالى هذه المناصب، بل إن الملوك والحكام قربوهم إليهم وأنعموا عليهم ألقاب النبلاء والأشراف، الأمر الذى أثار حفيظة عامة المسيحيين ضدهم، والأدهى من كل هذا أن هؤلاء الملوك والحكام عينوا الكثيرين منهم فى وظائف كهنوتية مرموقة مثل الحبر سليمان هاليفى الذى أصبح بعد تحوله إلى المسيحية أسقف قرطاجة والمفوض البابوى ومؤدب هنرى الثالث، ومن العائلات اليهودية المتنصرة التى احتلت مكانة رفيعة فى بلاط مملكة أراجون عائلة سانتا نجيل، والجدير بالذكر أن أحد أفراد هذه العائلة واسمه لويس كان وزير الخزانة فى عهد الملك فرديناند، ويرجع إلى هذا الوزير الفضل فى تمويل أول رحلة قام بها كريستوفر كولمبوس لاكتشاف أمريكا، وفى نهاية القرن الخامس عشر كان معظم كبار رجال الإدارة فى مملكة أراجون من اليهود المتحولين. وفى اللحظة التى بدأت فيها محاكم التفتيش تمارس عملها كان خمسة من هؤلاء اليهود يشغلون أرفع المناصب فى هذه المملكة، وهم لويس دى سانتا نجيل ـ جابرييل سانشيز ـ سانكو دى باترونى ـ فيليپ كليمنت ـ ألفونسو دى لا كابالريا. وفى مملكة كاستيل كان هناك ما لا يقل عن أربعة أساقفة من اليهود المتحولين إلى المسيحية، كما أن الملكة إيزابيلا عينت ثلاثة من هؤلاء اليهود كمساعدين خاصين لها، فضلًا عن أنها عينت اثنين منهم هما دييجو دى فاليرا وألونسو دى بالنشيا كمؤرخين رسميين. وقد لفت فرديناند وإيزابيلا أنظار المبعوثين الأجانب بكثرة تعيينهم لليهود المتحولين إلى المسيحية فى مناصب مهمة وحساسة، إلى جانب اشتغال الكثيرين منهم فى المهن الحرة مثل التجارة وصناعة الفضة والجلود والغزل والنسيج، ولم يقتصر وجودهم على المدن بل امتد نشاطهم إلى الزراعة والريف.

وتعتبر مهنة الطب من أبرز المهن التى تفوق فيها اليهود المتحولون. حتى محاكم التفتيش وجدت نفسها مضطرة إلى الاستعانة بهم عندما فشلت فى العثور على أطباء بين المسيحيين، وفرنسيسكو لوبيز فيلابوس واحد من أشهر الأطباء اليهود فى بلاط الملك فرديناند والملك شارل الخامس. وتمتلأ سجلات محاكم التفتيش فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بأسماء الأطباء اليهود المتحولين إلى المسيحية.

ولهذا السبب ذهب المسيحيون الأصليون إلى أن اليهود المتحولين نجحوا فى اختراق النظام الكنسى، واتهمهم شانئوهم بالسعى إلى تدميره من الداخل. ولم يحتل اليهود المتحولون أرفع المناصب فحسب بل شغلوا أسمى الوظائف الدينية كذلك. فضلًا عن نجاح الكثيرين فى اختراق الطبقة الأرستقراطية الإسپانية، وهو الأمر الذى أثار حفيظة الشعب ودعا إلى تفجر أعمال الشغب فى توليدو (طليطلة)، وفى هذا العام رفع سكرتير القصر الملكى فرنان دياز تقريرًا إلى أسقف كونيكا ينبهه إلى أن غالبية طبقة النبلاء فى مملكة كاستيل (كستيلا) أصبحت تنحدر من أصول يهودية متحولة. ثم جاء كتاب آخرون ليؤكدوا هذه الحقيقة، ففى مملكة أراجون قام رجل له علاقة وثيقة بمحاكم التفتيش فى سرقسطة بتأليف كتاب بعنوان «كتاب أراجون الأخضر» يتتبع فيه أنساب طبقة النبلاء هناك مبينًا شدة اختراق اليهود المتحولين إلى المسيحية لهذه الطبقة، لدرجة أنهم أصبحوا يشكلون سوادها الأعظم، وتحتوى هذه الوثيقة الخطيرة التى تنتمى إلى العقد الأول من القرن السادس عشر على فيض غامر من مثل هذه المعلومات الفاضحة التى استخدمت للتشهير بالحكومة الإسپانية، ولم تستطع هذه الحكومة السكوت على حملة التشهير هذه فأمرت عام ١٦٢٣ بجمع كل نسخ الكتاب المشار إليه وحرقها، وشن المناوئون للحكومة الإسپانية حملة فى السر والخفاء أشد ضراوة. وذلك عندما فشل الكاردينال فرنسيسكو ميندوزا بوباديلا فى إدخال اثنين من أقاربه فى الجيش الإسپانى، فقد استشاط هذا الكاردينال غضبًا وقدم مذكرة إلى الملك فيليپ الثانى عرفت فيما بعد بعنوان «وصمة فى جبين طبقة النبلاء الإسپان» أوضح فيها أن غالبية الطبقة الأرستقراطية فى إسپانيا تنحدر من جذور يهودية متحولة، وقد توالى طبع هذه المذكرة حتى القرن التاسع عشر، ونفس الشىء فعله مؤرخ آخر هو لورنز جالنديز كارفاجال الذى رفع إلى الإمبراطور شارل الخامس تقريرًا جاء فيه أن أبرز أعضاء المجلس الملكى ينتمون إلى أصول يهودية اعتنقت المسيحية.

وأيضًا ينتمى بعض أهم المؤرخين الإسپان فى القرن الخامس عشر إلى أصول يهودية، مثل ألفار جارسيا دى سانتا ماريا (المتوفى عام ١٥٢٩)، ودييجو دى فاليرا (المتوفى عام ١٤٨٨)، وألونسو دى بالنشيا (المتوفى عام ١٤٩٢)، كما برز بين هؤلاء اليهود المتحولين شعراء كبار مثل چوان دى مينا (المتوفى عام ١٤٥٦)، وچوان دى إفلينا (المتوفى عام ١٥٢٩)، وانخرط فى هذا الجدال المحتدم عدد من اليهود المتحولين إلى المسيحية ليشنوا حربًا شعواء على بنى جلدتهم، مثل الأسقف بابلو دى سانتا ماريا الذى ألف عام ١٤٣٢ كتابًا لم ير طريقه إلى النشر إلا بعد وفاته، فضلًا عن الطبيب جوشوا هالوركى الذى هاجم اليهود فى كتاباته بلا رحمة أو هوادة، وكذلك هناك يهودى متحول آخر اسمه بيدور دى لاكاباليريا كتب عام ١٤٥٠ بحثًا هاجم فيه بنى إسرائيل.

وفى حين أن الكتب السالفة الذكر تخاطب الطبقة المثقفة، فقد ظهرت كتب أخرى تخاطب السوقة ورجل الشارع، ومن أهمها ذلك الكتاب الذى نشره الراهب الفرانسيسكانى ألونسو دى أسبينيا عام ١٤٦٠، والذى كان أب اعتراف هنرى الرابع فى مملكة كستيلا بهدف تهييج خواطر عامة الناس ضد اليهود بوجه عام واليهود المتحولين إلى المسيحية بوجه خاص، ويتصف هذا الكتاب بالاعوجاجية والافتقار إلى دقة المعلومات الخاصة بالمجتمع اليهودى، والكتاب يتهم الشعب اليهودى بأنه أمة من الخونة وشواذ الجنس والمجدفين وقتلة الأطفال والمتآمرين والمغتالين والمرابين.

ورغم أن المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد (أى اليهود المتحولين) استطاعوا فى مجملهم التعايش بشىء من الأمان فى القرن الخامس عشر، فقد شاهد عدد من المدن صراعًا وتنازعًا منهم حول السلطة والمصالح، وتفجر هذا الصراع بعنف فى مدينة طليطلة كبرى مدن مملكة كستيلا وأحد أبرز المراكز اليهودية فيها، وفى عام ١٤٤٩ نشبت القلاقل ضد آلفارو دى لونا وزير الملك چوان الثانى، واجتمع المسيحيون القدامى للاحتجاج على استمرار استئثار اليهود المتحولين بالوظائف العامة، وفى يونيه من نفس العام (١٤٤٩) وافق مجلس مدينة طليطلة على فرض حظر على تولى اليهود المتحولين إلى المسيحية للمناصب الرسمية فى مدينة طليطلة والبلدان التابعة لها، وحظر قبول شهادة هؤلاء المتحولين ضد المسيحيين القدامى فى ساحات القضاء، ولم يرض البابا نيكولاس عن هذا الوضع فأصدر فى ٢٤ سبتمبر ١٤٤٩ مرسومًا ندد فيه بفكرة استبعاد أى مسيحى جديد من تقلد الوظائف بسبب اختلافه فى الدم والجذور العرقية، وهو ما استنكرته أيضًا بعض السلطات الكهنوتية الإسپانية، ورغم أن الملك چوان الثانى طلب من البابا التسامح مع الذين يستبعدون المسيحيين الجدد من الوظائف، فإن هذا الملك اضطر أكثر من مرة إلى مسايرة المسيحيين القدامى فى استبعاد اليهود المتحولين من مجلس المدينة. وأيضًا اضطر الملك هنرى الرابع بعد انتشار أعمال الشغب فى طليطلة عام ١٤٦٧ إلى الموافقة على استبعادهم فى ١٦ يونيه ١٤٦٨، ولكن هذه المشاكل كانت ذات طابع محلى، كما أن أحداث الشغب الكبيرة المناهضة لليهود بعد عام ١٣٩١ أصبحت متفرقة، بل إن المدن حيث كان اليهود المتحولون يمثلون مراكز قوة مهمة لم يحدث فيها اندلاع لأعمال الشغب، وخشى بعض رجال الإكليروس من تفكك الكنيسة من جراء التمييز بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد، الأمر الذى دفع رئيس أساقفة طليطلة ألونسو كاريللو إلى أن يدين فى عام ١٤٦٨ إنشاء تنظيمات نقابية تستبعد المسيحيين الجدد وتنظيمات أخرى تستبعد المسيحيين القدامى، وقرر هذا الرجل أن العماد يقضى على أية فوارق بين المسيحيين سواء كانوا قدامى أو جدد، ولهذا أصدر رئيس الأساقفة المشار إليه قرارًا بمنع إقامة أية نقابات قائمة على

التفرقة بين المسيحيين على أساس العرق، وهدد بالطرد من الكنيسة كل من يقدم على إقامتها، غير أن الناس لم يكترثوا بهذا التهديد، وهكذا اتسعت الهوة بين المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى الذين نجحوا فى تهييج خواطر عامة الناس ضد اليهود المتحولين، وكما رأينا فإن عددًا كبيرًا من اليهود أرغم على اعتناق المسيحية دون اقتناع، مما أثار الشكوك حول صحة إيمانهم.

وفى نهاية القرن الخامس عشر واجهت إسبانيا مشكلات اقتصادية، فبدأ النزاع بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد يحتدم من جديد، ومعنى هذا أن النزاع فى جوهره لم يكن دينيًّا بقدر ما كان نزاعًا اقتصاديًّا وسياسيًّا. وتفجرت أسباب النزاع فى بعض البلدان الإسبانية دون غيرها، فشهدت طليطلة وسيوداد ريال أعمال شغب ضد اليهود المتحولين، فى حين تمكنت الطبقة الأرستقراطية فى إشبيلية من قمع هذا النزاع، وتعتبر مدينة بورجوس من المدن التى عانت من أعمال الشغب لعقد كامل من الزمن، وقد وقعت أسوأ هذه الأعمال الموجهة ضد اليهود الجدد فى العديد من مدن الأندلس وخاصة مدينة قرطبة.

لقد كانت الأسباب التى حدت بإنشاء محاكم التفتيش فى إسبانيا اقتصادية وسياسية أكثر من كونها راجعة إلى التصدى لانتشار الهرطقات، وكان وسط إسبانيا وجنوبها (أى كستيلا القديمة والجديدة والأندلس) مركز الصراع الدينى اسمًا، السياسى والاقتصادى فعلًا، وتميزت بؤرة الصراع بقربها من المناطق التى عاش فيها المسلمون وعدد كبير من اليهود، هذه المنطقة شاهدت من قبل تعايش الأديان الثلاثة (الإسلام ـ اليهودية ـ المسيحية)، ولكنه تعايش محفوف بالتوتر وينذر بالصدام، وتضاربت الآراء بشأن وضع اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية، فهناك من اعتبرهم يهودًا بسبب إجبارهم على اعتناق المسيحية، وهناك من رأى أنهم مسيحيون، وهناك من رأى أنهم لا هم يهود ولا هم بالمسيحيين. وأمام هذا الوضع الشائك والمعقد للغاية اختلفت الآراء وتباينت المواقف: فسكرتير القصر الملكى هيرناندو ديل بلجار يعترف بوجود عدد كبير من اليهود المتحولين الذين يمارسون الطقوس اليهودية سرًّا ويتظاهرن بالمسيحية علنًا، وبعض اليهود رغم تحولهم لا يزالون يلبسون ملابس اليهود ويأكلون نفس طعامهم، وهم محط احتقار المسيحيين الأصليين واليهود على حد سواء، فاليهود يزدرونهم لأنهم نبذوا دينهم، والمسيحيون الأصليون يرمونهم بالنفاق، ثم إن كثيرًا من اليهود المتحولين لم ينسوا ذكريات اضطهاد المسيحيين لهم فى عقدى الأربعينيات والسبعينيات من القرن الخامس عشر، ويذهب بولجار إلى وجود عناصر يهودية مخلصة فى إيمانها بالمسيحية، ولكن يرى أن معظم اليهود المتحولين تأرجحوا بين الدينين وجمعوا بين عاداتهم اليهودية الراسخة واتباع الشكليات الخاصة بالدين المسيحى، ولعل عائلة أسقف سيجوفيا دييجو أرياس دافيلا (١٤٣٦ ـ ١٤٩٧) نموذج واضح لهذا التأرجح بين الديانتين.

ومع أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر سادت بين المسيحيين القدامى الإسبان نغمة تتهم اليهود المتحولين بالتظاهر بالولاء للدين المسيحى فى حين أنهم فى قرارة قلوبهم يتمسكون بدينهم اليهودى ويمارسون شعائره سرًّا أحيانًا وجهرًا أحيانًا أخرى. كما تتهمهم بالسعى إلى تدمير العقيدة المسيحية واقتلاعها من جذورها، وذهب المؤرخ المعادى للسامية بيرنالديز فى كتابه «ألبورايكو» إلى أن جميع المسيحيين الجدد لا يخرجون عن كونهم يبطنون الهرطقة ولا يصرحون بها، والجدير بالذكر أن تاريخ تأليف هذا الكتاب جاء بعد انقضاء عقد على إنشاء محاكم التفتيش الإسپانية. وعلى أية حال لم يكن من السهل على المحققين فى هذه المحاكم أن يحددوا على وجه الدقة معنى التهويد، وخاصة لأنهم كانوا يجهلون تفاصيل الشريعة الموسوية. وفى عام ١٤٨٤ أدانت محاكم التفتيش امرأة تدعى إينيس دى بيلمونت لأنها تأخذ راحتها يوم السبت، رغم أنها لم تكن تدين بأى من المعتقدات اليهودية الأخرى. ويدلنا هذا على أن تهمة التهويد التى أدين بسببها كثير من اليهود المتحولين كانت فى أحيان كثيرة مختلقة وليس لها أساس من الصحة، ولهذا كان من الطبيعى أن تلعب الشهادة الزور دورًا كبيرًا فى توجيه الاتهامات الباطلة ضد اليهود المتحولين، وهذا ما يؤكده مسيحى جديد من أراندا فى عام ١٥٠١ حين قال إن قيام محاكم التفتيش بإحراق معظم اليهود المتحولين المتهمين بالمروق عن المسيحية جاء نتيجة شهادات زور، ورأى كثير من القاطنين مع هؤلاء اليهود المتحولين أن القول بمروقهم عن المسيحية لا يعدو أن يكون محض كذب وافتراء، ويضيف الرجل قائلًا إن محاكم التفتيش أحرقت من أحرقت بسبب رغبتها فى الاستيلاء على ممتلكاتهم، الأمر الذى جعلها تختلق جريمة الهرطقة.

وهكذا نرى اختلافًا كبيرًا بين الباحثين والدارسين حول حقيقة هرطقة المسيحيين الجدد، والجدير بالذكر أن أعضاء مجلس مدينة برشلونة قالوا عام ١٤٨٦ بجلاء إلى المحقق الجديد الذى عين فى محكمة تفتيش هذه المدينة «نحن لا نعتقد أن جميع المسيحيين الجدد هراطقة أو أن تحول اليهودى إلى المسيحية يجعل منه مهرطقًا» وذهب كثيرون إلى أن معظم المسيحيين الجدد يمارسون الشعائر المسيحية باستثناء قلة ضئيلة منهم تعاطفت مع الديانة اليهودية، وعلى النقيض من ذلك نرى فى مدينة طليطلة عام ١٤٨٣ شاهدًا يستعين به الادعاء فى محاكم التفتيش يؤكد أن معظم المسيحيين الجدد فى طليطلة يؤمنون باليهودية، ومما زاد من تعقيد الأمور أن المسيحيين الجدد اتبعوا سياسة انعزالية، وامتنعوا عن الاختلاط باليهود والمسيحيين على حد سواء، وبحلول منتصف القرن الخامس عشر أصبحوا أقلية كبيرة العدد يعمل لها ألف حساب، وبلغت ثقتهم بأنفسهم مبلغًا جعلهم يتباهون بالانحدار من أصول يهودية ولم يحاولوا إخفاء هويتهم الدينية الأصلية

على الإطلاق، يقول المؤرخ أندريه برنالديز فى هذا الشأن «أنهم بخيلاء وصلف يعتبرون أنفسهم أفضل شعب أنجبه العالم»، وتصرفوا كأمة مستقلة عن العالم المسيحى القديم معتبرين أنفسهم أفضل من المسيحيين القدامى؛ لأنهم ينحدرون رأسًا من نسل السيد المسيح، ويقال عن المسيحى الجديد ألونسو دى كارتاجينا أنه اعتاد إنهاء صلواته بالعبارة التالية «يا مريم المقدسة أم الرب التى تربطنى بها قرابة الدم، صلى من أجلنا» باختصار اعتبر المسيحيون الجدد أنفسهم خير أمة أخرجت للناس، ولهذا نرى دييجو دى فاليرا يتساءل «وهل هناك أمة فى مثل نبل اليهود؟».

وبعد تحول اليهود إلى المسيحية على نطاق واسع بعد مجازر عام ١٣٩١، لم يكن من السهل عليهم التأقلم مع كنائس المجتمع المسيحى الجديد عليهم، ولهذا قامت برشلونة وپلنسية بتخصيص معابد يهودية لهم لاستخدامها ككنائس. وفى مملكة أراجون كان المسيحيون الجدد يطلقون على أنفسهم بفخر «مسيحيو إسرائيل» وبسبب اتباعهم سياسة العزلة اقتصر زواجهم على بعضهم البعض؛ وأنحى عليهم المجتمع المسيحى بالملامة لصلفهم ووقاحتهم وزهوهم بما يملكون من مال، الأمر الذى زاد الفجوة بينهم وبين المجتمع المسيحى، وانعكس هذا بطبيعة الحال على موقف محاكم التفتيش المعادى لهم. والجدير بالذكر أن المحقق الراهب الدومينيكانى رامون بنيافروت فى القرن الثالث عشر، ونظيره بيكلو إيمريك فى القرن الرابع عشر لعبا دورًا بارزًا فى إضفاء روح معادية للسامية على محاكم التفتيش، حتى قبل أن تبدأ فى الاضطلاع بتقديم اليهود إلى المحاكمة.

***

الفصل الرابع

ظاهرتان لافتاتان

المعارضة ضد محاكم التفتيش الإسپانية

يشير مؤرخو محاكم التفتيش إلى أن الزوار الأجانب لشبه الجزيرة الإسپانية كانوا يبدون اندهاشهم البالغ لرضاء عامة الإسپان عن هذه المحاكم بسبب تأجج جذوة مشاعرهم الدينية. ويقول للورنت ـ أول من أرخ لهذه المحاكم فى العصر الحديث ـ أنه دهش كثيرًا لعدم إبداء الشعب الإسپانى أية معارضة لها. فهو يصرح عام ١٨١١ فى البحث الذى ألقاه فى الأكاديمية الملكية التاريخية التى عقدت اجتماعها فى مدريد بأن كل كتاب صادر عن محاكم التفتيش الإسپانية يكاد ألا يخلو من ثناء وتقريظ لها. ويحار الدارسون فى السبب الذى حدا بالإسپان أن يرحبوا بهذه المحاكم، كما أنهم لا يعرفون ما الذى جعل مملكتى كستيلا وأراجون اللتين اشتهرتا بالانفتاح والتسامح يقبلان نظامًا قضائيًّا قائمًا على القسر والظلم والإجحاف. ويقول الكاتب الچيزويتى چوان دى ماريانا، الذى عاش فى إسپانيا فى القرن السادس عشر والمدافع عن محاكم التفتيش، إن هذه المحاكم وجدت صدودًا واعتراضًا من جانب بعض الناس؛ لأن إجراءاتها التعسفية لم تعرفها المحاكم الإسپانية الدينية العادية القائمة قبل إنشاء محاكم التفتيش، ولكن ماريانا كان من أعضاء محاكم التفتيش، والغريب أن هذا الرأى السيئ فى محاكم التفتيش لم يكن صادرًا عن المسيحيين الجدد، بل كان صادرًا عن قدامى المسيحيين الذين عبروا عنه من خلال المجالس النيابية فى كل من كستيلا وأراجون، وقد برر ماريانا إنشاء محاكم التفتيش بأنها ضرورة لمسايرة الزمن. وهو نفس المنطق الذى استخدمه الملك فرديناند للدفاع عن إنشاء محاكم التفتيش، فقد كان يحشد جنوده لخوض حرب ضارية ضد المسلمين فى غرناطة، الأمر الذى اقتضى قبول الإجراءات الاستثنائية، ولعل هذا يفسر التعاون الغريب والاستجابة المدهشة التى لقيها الملك من الشعب الإسپانى، ففى عام ١٤٨٦ أصدر الملك بيانًا جاء فيه أنه فكر مليًّا فى العواقب السيئة المترتبة على إنشاء محاكم التفتيش، ولكن تبين له أن هذه المحاكم ضرورية لخدمة الله والدين، ولهذا قرر التضحية بمصالحه الدنيوية كحاكم فى سبيل تمجيد كلمة الرب.

وكما سبق أن أوضحنا فإن الأخطار الناجمة عن تظاهر اليهود باعتناق المسيحية خلق جوًّا مناسبًا يجعل من إنشاء محاكم التفتيش أمرًا مقبولًا ومستساغًا، ويبدو أن الملك فرديناند لم يكن يفكر فى أن يجعل محاكم التفتيش مؤسسة لها صفة الدوام، بدليل أنه لم يتخذ أية خطوة من شأنها تخصيص موارد مالية ثابتة أو منتظمة لها.

وعلى أية حال كان هناك من المسيحيين القدامى من يعترض على الحكم بالموت على المشتبه فيهم من اليهود المتحولين. ويعتبر هرناندو ديل بولجار واحدًا من أبرز المعترضين على عقوبة إعدام المارقين عن الدين المسيحى، ولم يقتصر الاعتراض ضد هذه القسوة على بولجار وحده، فكما سبق أن ذكرنا قام أهل أراجون بالاحتجاج لدى ملكها فرديناند على استخدام العنف الذى لا مسوغ له ضد المسيحيين الجدد.

وشكا إليه حكام برشلونة عام ١٤٨٢ قائلين: «نحن نفغر أفواهنا أمام الأنباء التى وردت لنا عن الإعدامات والإجراءات التى تحدث فى مملكة كستيلا»، وأنحى هؤلاء المعترضون على محاكم التفتيش باللوم لأنها لم تحاول مجادلة المسيحيين الجدد بالحسنى وإقناعهم عن طريق الوعظ والإرشاد وإعطائهم المثل الصالح. يقول رئيس أساقفة إشبيلية فى هذا الشأن إن آلاف اليهود المتحولين إلى المسيحية فى الأندلس لم يسمعوا خارج مجتمعهم اليهودى كلمة تهديهم سواء السبيل، ولهذا فإن من الطبيعى أن نراهم يتبعون ممارسات آبائهم وأجدادهم من اليهود، وناشد رئيس الأساقفة الملك فرديناند أن يدعو رجال الكنيسة إلى هداية الضالين من اليهود المتحولين سواء السبيل عن طريق القدوة الصالحة وليس عن طريق إشعال النار فيهم.

اعترض بولجار على عقوبة إعدام المهرطقين، واستند فى ذلك إلى رأى ثقة من ثقات الكنيسة الكاثوليكية هو القديس أوغسطين الذى دافع عن استخدام العنف مع المهرطقين، ولكنه لم يوافق على إعدام أتباع الهرطقة الدوناتية الذين ظهروا فى شمال أفريقيا فى القرن الخامس (انظر كتابى «الهرطقة فى الغرب» دار سينا للنشر). وإلى جانب بولجار اعترض چوان دى لوسينيا مندوب الملك فرديناند لدى الكرسى البابوى الذى يقول عنه غريمه قسيس طليطلة ألونسو أورتيز إنه استخدم براعته فى السفسطة فى الدفاع عن اليهود المتحولين إلى المسيحية.. بل إنه طلب من الملك والملكة إلغاء محاكم التفتيش، كما طالب بمعاملة اليهود المرغمين على اعتناق المسيحية كوثنيين(*) لهم نفس

(*) كان الرأى المسيحى السائد والتقليدى فى المسلمين أنهم وثنيون، وما زال هذا الرأى موجودًا وإن لم يكن معلنًا ـ الناشر.

حقوق الوثنيين الذين لا يفترض فيهم الولاء للكنيسة، بل إن جانبًا من هذه المعارضة انبثقت من داخل الكتاب المقدس نفسه المهيمن على محاكم التفتيش. فالمحقق لويس دى بارامو كتب يقول إن عددًا كبيرًا من العلماء والدارسين الإسپان قبل وبعد إنشاء محاكم التفتيش رأوا أن طرد اليهود من إسپانيا إجراء خاطئ وضار بالكنيسة؛ لأن اليهود الذين يرغمون على العماد لا يمكن أن يتمتعوا بالنعمة المقدسة النابعة من الإيمان الإرادى الصادق: فاليهودى الذى يؤمن بالمسيحية عن قسر وإكراه لا يعدو أن يكون فى حكم الوثنى، وبالنظر إلى أن الغرض من طرد اليهود كان إبادتهم والقضاء عليهم فإنه يتعارض مع أهداف الدين المسيحى.

بالإضافة إلى ذلك انتقد البعض معاملة المسيحيين الجدد معاملة سيئة، فالمؤرخ الراهب چوزيه دى سيجونزا الذى عاش فى القرن السادس عشر والمنتمى إلى طائفة الچيرونيميين، يعبر عن أسفه لأن إسپانيا لم تعد رجال كنيسة صالحين مثل هيرناندو دى تالافيرا رئيس أساقفة غرناطة، ويقول چوزيه إن تالافيرا لم يسمح لأحد بالإشارة بالقول أو الفعل إلى المسيحيين الجدد، كما ساءه أن يعامل المسيحيون القدامى اليهود المتحولين معاملة أسوأ من معاملتهم لليهود الذين يحتفظون بدينهم، والرأى عند الراهب چوزيه أنه لو كثر أمثال تالافيرا لما تعرض كثير من أتباع موسى ومحمد للقتل، ولضاق نطاق انتشار الهرطقة فى البلاد الأخرى، ويعبر تالافيرا عن آرائه فى كتاب ألفه عن الكاثوليكية ردًا على نبذة نشرها يهودى متحول من إشبيلية عام ١٤٨٠ دافع فيها عن بنى إسرائيل، وردًّا على زهوهم بأنهم أفضل أمة أخرجت للناس، ولكن هذه السماحة التى يظهرها تالافيرا لا ينبغى أن تنسينا أنه يؤيد إنزال عقوبة الإعدام بالمهرطقين، كل ما فى الأمر أنه عارض معاداة السامية واضطهاد المسيحيين الجدد، ويحبذ هدايتهم وإثنائهم عن ضلالهم بالمعروف والحسنى، وإعمال العقل والدعوة إلى الإقناع مع مسلمى غرناطة الذين تحولوا بعد هزيمتهم إلى الدين المسيحى، والجدير بالذكر أيضًا أن بابا روما لم يكن راضيًا عن أفكار تالافيرا بدليل أنه حظر كتابه عام ١٥٥٩.

وفى الأيام الباكرة لمحاكم التفتيش جاء الاعتراض الأساسى عليها من اليهود المتحولين إلى الدين المسيحى. وبالنظر إلى أن اعتراضهم لم يجد أذانًا صاغية داخل إسپانيا فقد تطلعوا إلى روما، ويبدو أنهم استطاعوا عن طريق الرشوة أن يجعلوا البابا سكستوس الرابع يصدرمرسومًا بتاريخ ٢ أغسطس ١٤٨٣ يقضى باستعمال محكمة تفتيش إشبيلية الرأفة مع المسيحيين الجدد. ومات سكستوس الرابع عام ١٤٨٤ ليحل محله البابا إينوسنت الثامن الذى اتبع سياسة معاملة المسيحيين الجدد معاملة طيبة دون إثارة حفيظة الحكام الكاثوليك عليه، ويتضمن المرسومان اللذان أصدرهما

البابا إينوسنت الثامن فى ١١ فبراير ١٤٨٥ و ١٥ يوليه من العام نفسه تجديدًا لاتباع سياسة الرأفة مع المسيحيين الجدد وإعطائهم الفرصة للتصالح مع الكنيسة.

ولكن من الخطأ أن نظن أن المسحيين الجدد وحدهم هم الذين اعترضوا على قسوة محاكم التفتيش، فقد اعترض المسيحيون القدامى على إرغام المتهمين بالمروق على الكنيسة على لبس ما يعرف بلباس التوبة أو رداء العار، فضلًا عن اعتراضهم على التجسس على اليهود المتحولين. وقبل عام ١٤٩٢ كانت محاكم التفتيش تكلف اليهود أنفسهم بالتجسس على بنى جلدتهم ممن اعتنقوا المسيحية، وفى طليطلة قام المحققون فى محاكم التفتيش عام ١٤٨٥ باستدعاء أحبار اليهود وحملهم على القسم بفضح أمر أى يهودى يمتنع عن التبليغ عن بنى جلدته الداعين إلى التهويد، كما نرى فى مدينة سيوداد ريال فى الفترة من ١٤٨٣ حتى ١٤٨٥ يهوديًّا متحولًا اسمه فرنان فالكون هو الشاهد الرئيسى الذى استندت إليه محكمة التفتيش فى إدانة معظم المقبوض عليهم بتهمة التظاهر بالمسيحية والدعوة إلى التهويد.

وفى مملكة كستيلا ناصب اليهود المتحولون محاكم التفتيش العداء، ولكن ليس هناك ما يدل على اعتراض المسيحيين القدامى عليها فى العقدين الأول والثانى من إنشائها، ورغم ما اتسمت به ممارستها فى تلك الفترة من مذابح، فقد تم إعدام آلاف المسيحيين المنحدرين من أصول يهودية، ونفى آلاف آخرين من البلاد على نحو لم يسبق له نظير ليس فى إسپانيا وحدها بل فى التاريخ الأوروپى بأسره، مما أثار احتجاج عدد ضئيل من قدامى المسيحيين، ولم تتسع رقعة هذا الاحتجاج إلا بعد أن امتد تنكيل محاكم التفتيش إلى المسيحيين القدامى أنفسهم.

وفى عام ١٤٩٩ طرد محقق محكمة تفتيش قرطبة من وظيفته بعد إثبات تهمة الغش والابتزاز عليه، ثم عين محله فى سبتمبر ذلك العام ديجو رودريجويز لوكيرو، الذى لم يمض على تعيينه أى وقت يذكر حتى لجأ إلى اتباع أساليب الابتزاز والغش والخداع والقبض على اليهود المتحولين الأثرياء بناء على شهادات وتهم باطلة، بهدف تجريدهم من ممتلكاتهم والاستيلاء عليها، ويبرر لوكيرو سياسة الرعب والترويع التى اتبعها بأنه اكتشف وجود مؤامرة يحيكها اليهود المتحولون ضد المسيحية فى تلك المنطقة، ويبدو أنه استغل وجود هذه المؤامرة للبطش بالمسيحيين والتنكيل بهم، فقام بالقبض على أعداد هائلة من اليهود المتحولين وحملهم على الاعتراف بذنبهم، وجاء فى التقرير المرفوع عام ١٥٠٠ إلى المجلس الملكى أن محكمة التفتيش التى يرأسها لوكيرو حكمت على ١٣٠ شخصًا بالانتكاس، وصدرت ضدهم أعمال إيمانية ـ أى أحكام بالإعدام ـ ولما ارتفعت بعض الأصوات بالاحتجاج، أرسل المجلس الملكى لجنة تقصى الحقائق لتتحرى الحقيقة من

المقبوض عليهم واقتنعت اللجنة بسلامة اعترافاتهم، مما ساعد على إطلاق يد لوكيرو فى التنكيل بالمتهمين بالمروق الدينى، ويقول مؤرخ تاريخ قرطبة إن لوكيرو استخدم العنف مع المقبوض عليهم حتى استطاع أن ينتزع منهم اتهامًا لعدد هائل من معارفهم من المسيحيين الجدد والمسيحيين القدامى لدرجة أثارت الاضطرابات والقلاقل وتسببت فى اندلاع أعمال الشغب فى قرطبة.

يقول شهود من اليهود المتحولين إنهم أجبروا على تلقين المحبوسين من المسيحيين القدامى بعض الصلوات اليهودية حتى يتمكن لوكيرو من اتهامهم بالدعوة إلى التهويد.

ويتهم التقرير الذى سطره مسئول الكاتدرائية ومجلس المدينة المؤرخ فى ديسمبر ١٥٠٦ لوكيرو بقتل وسرقة كل من استطاع والتشهير به، وأمرت السلطات فى قرطبة بإجراء تحقيق مستقل فى الأمر، وانتهى التحقيق إلى أن لوكيرو قام بتزييف الاتهامات ضد ضحاياه، وإلى أن رئيس أساقفة إشبيلية الراهب دييجو دى ديزا والمحقق العام فيها تقاعس عن النظر فى الالتماسات المقدمة ضد محاكم التفتيش، وأنه هناك ما لا يقل عن أربعمائة سجين برىء، فضلًا عن إصدار فى ديسمبر ١٥٠٤ أعمال إيمانية بحرق ١٢٠ شخصًا وهم أحياء، وحرق سبعة وعشرين آخرين فى مايو ١٥٠٥ لمنعهم من الشكوى إلى فيليپ العادل ملك كستيلا، وتدخل هذا الملك فى آخر لحظة فى يونيه ١٥٠٦ ليمنع حدوث محرقة أخرى لمائة وستين شخصًا كان لوكيرو يعد لها.

ودلت التحريات التى أجراها المحقق لوكيرو أن عائلة هرناندو دى تالافيرا رئيس أساقفة غرناطة البالغ من العمر ثمانين عامًا والمنتمى إلى طائفة الچيرنوميت تضم مسيحيين جدد تنكروا لمسيحيتهم، واتهم المحقق تالافيرا بإقامة هيكل يهودى فى قصره، وبناء عليه ألقى القبض عليه وعلى جميع أفراد أسرته التى تتكون من أخته وابنتى عمه وبناتهما بالإضافة إلى خدم القصر، وتحت وطأة التعذيب شهد أقارب تالافيرا ضده. ولم يرق هذا فى عين البابا فتدخل فى الوقت المناسب لتبرئة رئيس الأساقفة من كل التهم الموجهة إليه فى أبريل ١٥٠٧ وتم إطلاق جميع أفراد أسرته، ولكن القدر لم يمهله كى يتمتع بهذه الحرية؛ إذ مات بالحمى بعد إطلاق سراحه بوقت قصير، ولكن أثناء احتضاره فضح لوكيرو وشركاءه متهمًا إياهم بالسعى إلى إبادة جميع اليهود المتحولين إلى المسيحية، الأمر الذى يتعارض مع مبادئ الكنيسة الكاثوليكية، وبسبب تفانيه فى خدمة الكنيسة توفى هذا الرجل فى فقر مدقع؛ مما اضطر أفراد عائلته إلى اللجوء إلى أسقف مالاجا كى يعيشوا على مروءته وإحسانه.

وقد أثارت مظالم لوكيرو حنق المؤرخ چونزالو دى أيورا عليه، فكتب بتاريخ ١٦ يوليه ١٥٠٧ كتابًا إلى ميجويل ألمازان سكرتير الملك يحتج فيه على هذه المظالم وقدرة لوكيرو على تشويه

سمعة الأمة بأسرها، وعلى اقتراف جرائم القتل والسرقة والاغتصاب بلا ضابط أو رادع، ولهذا تدخلت الكنيسة لإصلاح هذا الاعوجاج وأمرت بوقف ديزا عن العمل، وفى ٥ يونيه ١٥٠٧ تم تعيين فرنسيسكو جيمنيز دى سستروس رئيس أساقفة طليطلة فى وظيفة المحقق العام. وفى مايو ١٥٠٨ قرر المجلس الأعلى القبض على لوكيرو واقتياده مكبلًا بالسلاسل إلى بورجوس، بينما أطلق سراح جميع ضحاياه فى سجن قرطبة، ولم يعاقب هذا الرجل على ما ارتكب من جرائم بل تقاعد فى إشبيلية، حيث وافته المنية فى هدوء وسكينة.

وكان للمحقق لوكيرو مساعد فى قرطبة يدعى برافو تم تعيينه مؤخرًا فى مدينة لليرينا، ولم يطق أهل هذه المدينة ظلمه وطغيانه فتقدموا بشكوى إلى الملك ضده، وامتدت سطوة لوكيرو أيضًا إلى محكمة تفتيش منطقة جاين التى استأجرت شاهد زور يدعى دييجو دى الجيكيراس كان السبب فى الزج بأثرياء اليهود المتحولين إلى المسيحية فى السجون بتهمة الشك فى هرطقتهم، وطلب شعب جاين من الملك أن يكف أسقفها عن محاسبة المهرطقين والمارقين. وفى كثير من الأحوال كان مساعدو المحققين يضارعونهم فى قسوتهم وشراستهم، فعلى سبيل المثال قام كاتب محكمة تفتيش مدينة جاين بحبس فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها فى حجرة ثم جردها من ملابسها وألهب جسدها بالسياط حتى وافقت على الشهادة ضد أمها، وأصدر الشهود فى طليطلة بتاريخ ٢٦ سبتمبر ١٤٨٧ بيانًا جاء فيه أن چوان دى يوريا المسئول فى محكمة التفتيش عن استلام الممتلكات والأموال الصادرة اختلس مبلغًا باهظًا يصل إلى أربعة آلاف دوقة، فضلًا عن أن بعض صغار الموظفين فى محاكم التفتيش اقتنصوا الفرصة للاستيلاء على ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم.

وفى مملكة أراجون نجد أن المسيحيين القدامى الذين سمحوا من قبل باضطهاد المسيحيين الجدد غيروا موقفهم بعد وفاة الملكة إيزابيلا، فبدءوا يقفون فى صفهم ويدافعون عنهم، وفى عام ١٥١٠ عقد اجتماع فى مدينة مونزون حضره ممثلون عن ممالك أرجوان وكاتالونيا وپلنسية لمناقشة ضرورة إدخال إصلاحات على النظام القضائى الذى تسير عليه محاكم التفتيش، ثم عقدوا اجتماعًا آخر فى مونزون عام ١٥١٢ أعدوا فيه قائمة بالإصلاحات المقترحة وقدموها إلى الملك فرديناند فوافق عليها، الأمر الذى غير طبيعة العلاقة التى تربط المناطق والمحافظات الإسپانية المختلفة بمحاكم التفتيش، وتضمنت الإصلاحات المقترحة تحديد عدد الحراس أو المألوفين التابعين لكل محكمة تفتيش، وخضوع محاكم التفتيش لفرض الضرائب عليها، وتقديم العاملين فى هذه المحاكم الذين يرتكبون جرائم إلى المحاكمة أمام محكمة مدنية، واحتفاظ المتهم بالممتلكات التى كان يملكها قبل مثوله أمام محكمة التفتيش، والسماح بالمعاملات التجارية مع اليهود المتحولين إلى

المسيحية، وعدم صلاحية محاكم التفتيش للنظر فى قضايا الربا وتعدد الزوجات والسحر والشعوذة والتجديف طالما أنه لا توجد شبهة الهرطقة، ولا شك أن نجاح نواب الأمة فى تغيير سياسة الملك فرديناند دليل على تعاظم المعارضة ضد محاكم التفتيش فى مملكة أراجون على وجه الخصوص، وأيضًا ليس أدل على شدة المعارضة من أنها نجحت فى إجراء تغييرات أعظم وأعمق من تغييرات عام ١٥١٢.

بعد موت الملك فرديناند فى ٢٣ يناير ١٥١٦ آل العرش إلى حفيده شارل الذى تصادف وجوده بعيدًا عن البلاد فى منطقة فلاندرز، وعندما ماتت إيزابيلا قبل فرديناند فى ٢٦ نوفمبر ١٥٠٤ كان فرديناند لا يزال ملكًا على مملكة أراجون فقط، حيث إن ابنته چوانا (الملقبة بالمجنونة) التى ترملت عام ١٥٠٦ بعد وفاة زوجها النمساوى فيليپ العادل كانت تحكم مملكة كستيلا، وبعد وفاة فرديناند كان من المفروض أن تخلفه ابنته چوانا ولكن جنونها حال دون ذلك، الأمر الذى أدى إلى مجىء ابنها إلى سدة الحكم بدلًا منها.

وبينما الشعب ينتظر وصول الملك الجديد شارل إلى إسپانيا، كان الكاردينال سسنيروس يحكم السيطرة على محاكم التفتيش، وقد أوصى الملك فرديناند قبل وفاته بالمحافظة على هذه المحاكم، وهذا ما كان خليفته شارل ينوى فعله، ولكن الناس وبالذات اليهود المتحولين كانوا آنذاك يتوقون إلى إدخال الإصلاحات عليها، وفزع الكاردينال سسنيروس المسئول عن محاكم التفتيش عندما سرت شائعة بأن الملك الجديد شارل ينوى الإعلان عن أسماء الشهود ضد المتهمين، فأرسل خطابًا إلى هذا الملك فى مارس ١٥١٧ جاء فيه أن محاكم التفتيش نظام كامل ولا يحتاج إلى الإصلاح البتة، والذى أفزع أنصار محاكم التفتيش هو علمهم بأن إعلان أسماء الشهود ضد المتهمين سوف يؤدى بالضرورة إلى اغتيالهم، وما إن وصل الملك شارل البالغ من العمر سبعة عشر عامًا إلى إسپانيا قادمًا من فلاندرز حتى قدمت إليه مطالب بضرورة تقليم أظافر المحققين وإخضاع محاكم التفتيش إلى حكم القانون، وبعد وصول الملك شارل فى سبتمبر عام ١٥١٧ عقد أولى جلسات البرلمان فى بلد الوليد فى فبراير ١٥١٨، وطالب النواب بضرورة التزام محاكم التفتيش بالعدل وتصحيح أوضاعها الخاطئة حتى لا تصيب الأبرياء بالسوء، كما طالب أعضاء مجلس النواب بالتدقيق فى اختيار المحققين بحيث يختارون من بين العلماء ذوى السمعة الطيبة، واستجاب الملك شارل لهذه المطالب، وكلف مستشاره جين لى سوفاج بدراسة الموضوع واقتراح الإصلاحات التى يراها مناسبة، وأدان سوفاج ما يتعرض له الأبرياء من موت وظلم واضطهاد وتشهير على يد محاكم التفتيش.

وكذلك تضمنت الإصلاحات المقترحة تمكين السجناء من استقبال الزوار وتلقى النصح والمشورة، وتحديد التهم الموجهة إليهم عند القبض عليهم، وإطلاعهم على أسماء الشهود ضدهم، ومنعت القيام ببيع ممتلكاتهم قبل صدور الأحكام عليهم أو صرف مستحقات المحققين ورواتبهم من ثمن الممتلكات المصادرة، كما طالبت الإصلاحات بحق المقدمين إلى المحاكمة حضور القداس وأخذ المناولة، وأنه على المشرفين على السجون ألا يتركوا السجناء بلا طعام حتى يتضوروا من الجوع، وإذا لم يكن هناك مناص من تعذيبهم فلا بد من مراعاة القصد والاعتدال.

ومن سوء حظ المتهمين أن هذه المقترحات لم تؤخذ فى الاعتبار، فقد عين الملك شارل إثر وفاة سسنيروس قريبه الهولندى الكاردينال أدريان من أوترخت، الذى كان يشغل وظيفة أسقف تورتوزا، وبموت سوفاج الذى أراد أن يترفق بالمتهمين عام ١٥١٨ تبخر الأمل فى إصلاح محاكم التفتيش الإسپانية، ومما زاد من تلاشى هذا الأمل أن الكاردينال أدريان القادم من هولندا كان أجنبيًّا ومن ثم لم يكن على دراية بحقيقة المشكلات الإسپانية.

وفى شهر مايو عام ١٥١٨ عقد مجلس النواب (البرلمان) اجتماعًا فى مدينة سرقسطة بقصد إعلان ولاء شعب أراجون للملك شارل، وعرض عليه أعضاء البرلمان مبلغًا كبيرًا من المال مقابل موافقته على مجموعة من الإصلاحات من النوع الذى سبق لسوفاج أن اقترحها، ويبدو أن شارل كان ينوى المراوغة وعدم وضع الإصلاحات المقترحة موضع التنفيذ، فقد طلب من سفيره لدى الكرسى الباباوى فى روما أن يتولى قداسته صرف النظر عن هذه الإصلاحات وإعطاء الملك حلًّا بعدم التقيد بها، غير أن أعضاء البرلمان استغلوا توقيع الملك بالموافقة على إجراء الإصلاحات فى محاكم التفتيش وقاموا بشهر بنودها وتوثيقها عن طريق موثق (مسجل) البرلمان چوان برات، ثم أرسلوا الأوراق المشهرة إلى بابا روما، وهكذا نشأ صراع بين البرلمان الإسپانى ومحاكم التفتيش بقبضها على الموثق چوان برات واتهمته بتزوير بنود الإصلاحات المقترحة رغم أنها سليمة؛ مما اضطر المستشار الجديد ميرميورينو جاتينارا إلى إبلاغ البابا على جناح السرعة بأن الأوراق التى أرسلها إليه البرلمان الإسپانى بخصوص محاكم التفتيش أوراق سليمة ولا غبار عليها، واحتج برلمان أراجون على القبض زورًا وبهتانًا على الموثق برات، وعقد البرلمان مؤتمرًا حضره أشراف المملكة ونوابها وطلبوا من الملك شارل الإفراج عن برات وهددوه بالامتناع عن تقديم أية أموال له إلا بعد إطلاق سراح برات، ثم دعى البرلمان إلى الانعقاد وأعلن إضرابه وأصر على عدم الانفضاض إلا بعد أن يأخذ العدل مجراه. وفى هذه المرحلة من الصراع بين نواب الأمة ومحاكم التفتيش تدخل البابا ليو العاشر (١٥١٣ ـ ١٥٢١) لصالح شعب أراجون، فقد أصدر فى يوليه

عام ١٥١٩ ثلاث مذكرات تقدموا بها واحدة إلى الملك شارل، وأخرى إلى المحقق العام، وثالثة إلى محكمة تفتيش سرقسطة، وقام بتحديد السلطة المخولة إلى محاكم التفتيش بحيث لا تتجاوز سلطة المحاكم العادية، فضلًا عن إلغاء كافة الامتيازات التى سبق للبابا السابق عليه أن منحها لمحاكم التفتيش، ورفض الملك شارل وموظفوه الاعتراف بهذه التوجيهات البابوية وامتنعوا عن نشرها، كما أنهم احتجوا بشدة لدى البابا، فاضطر البابا إلى تغيير موقفه، واكتفى بتعليق تعليماته دون أن يقوم بإلغائها. وفى الحال رفض سكان أراجون الاستمرار فى دفع الأموال إلى الملك، كما اضطر البابا فى ديسمبر ١٥٢٠ إلى إمساك العصا من الوسط واتخاذ موقف بينى مائع. وفى عام ١٥٢١ قام الكاردينال أدريان بفك الاشتباك بين ملك أراجون وشعبها وأمر بإطلاق سراح برات، الأمر الذى اعتبره شعب أراجون انتصارًا عظيمًا له. غير أن محاكم التفتيش استمرت فى اتخاذ موقف متشدد فى رفضها للإصلاحات المقترحة وللاعتراف بشرعية الاتفاقيات التى تمت فى عام ١٥١٢ و١٥١٨، مما أضاع مساعى الإصلاح هباءً منثورًا.

وفى أواخر عام ١٥٢٠ بذل الإصلاحيون محاولة أخرى لتقييد محاكم التفتيش وكسر شوكتها والتخفيف من وطأة بطشها وطغيانها. حدث هذا أثناء غياب الملك شارل فى فلاندرز، وبعد عودة الملك إلى بلاده إسپانيا عقد البرلمان جلسة فى مدينة بلد الوليد عام ١٥٢٣ طرح فيه قضية إصلاح حال محاكم التفتيش، وطالب الملك بدفع رواتب المحققين من خزانته وليس من أموال المتهمين المصادرة، ولكن سعى البرلمان إلى الإصلاح ذهب أدراج الرياح. وأيضًا اجتمع البرلمان فى طليطلة عام ١٥٢٥ للشكوى من تجاوزات المحققين وحراسهم. غير أن هذا السعى إلى الإصلاح خاب، ونجح دعاة الإصلاح فقط فى الحصول على مجرد وعد بإصلاح أية عيوب قد تتضح فى نظام محاكم التفتيش فى المستقبل، وفى عام ١٥٢٦ قدمت مدينة غرناطة إلى الملك شاهدًا على الشرور التى تقترفها محاكم التفتيش عندما تأمر بوضع المقبوض عليهم فى زنزانات معتمة لا يخترقها بصيص من الضوء، وطالبت غرناطة بوضعهم فى سجون يدخلها النور، ورغم أن مثل هذه المطالب كانت تقدم إلى الملك كل عام تقريبًا فقد رفض الملك الاستجابة لها، ولكن يبين هذا على أية حال أن الاحتجاج على مظالم محاكم التفتيش لم يتوقف قط. وفى أبريل عام ١٥٢٠ لفت الملك أنظار أحد المراسلين إلى النقد اللاذع الذى وجهه برلمان أراجون وكاتالونيا إلى المكتب المقدس، فضلًا عن أن هذا المكتب تعرض للاعتداء من جانب بعض أفراد الشعب. ولم تكن مملكة أراجون الوحيدة التى هاجمت محاكم التفتيش فقد شاركتها مملكة كستيلا فى هذا الهجوم.

وفى الفترة من ١٥١٩ إلى ١٥٢١ اندلع فى شبه الجزيرة الإسپانية تمرد يعرف باسم «تمرد

الكوميونيروس»، الذى قام به بعض أثرياء الحضر ضد السلطة الملكية، ووجد هذا التمرد مناصرة وتأييدًا من جانب بعض اليهود المتحولين إلى المسيحية، وسرت شائعة بأن اليهود المتحولين إلى المسيحية هم المسئولون عن هذا التمرد، بل إن رئيس شرطة كستيلا أبلغ الملك شارل عام ١٥٢١ أن اليهود المتحولين هم السبب الأساسى فى إثارة الفتن والقلاقل. واستطاع الملك إلحاق الهزيمة بالمتمردين فى فيلالار فى ٢٣ أبريل عام ١٥٢١، وإذا كان بعض اليهود المتحولين ناصروا التمرد فإن بعضهم الآخر حارب فى صفوف الملك ضد المتمردين. وطبقًا لما جاء على لسان أمير بحرية كستيلا عام ١٥٢١، فإن المسيحيين الجدد أيدوا المتمردين الساعين إلى القضاء على محاكم التفتيش، غير أن أعمال محاكم التفتيش لم تتأثر على الإطلاق بهذا التمرد بل استمرت كالمعتاد. وفى مملكة بلنسية نشب تمرد مماثل يعرف بتمرد الأخوة، وأيضًا لم يؤثر هذا التمرد مطلقًا فى سير أعمال محاكم التفتيش التى أجبرت المسلمين الذين يعيشون تحت الحكم المسيحى على العماد والتحول إلى النصرانية.

ورغم استمرار محاكم التفتيش فى عملها فقد استمرت أيضًا الاعتراضات عليها فى مملكتى كستيلا وأراجون، ومن مظاهر هذا الاعتراض تلك المذكرة التى أعدها برلمان أراجون فى جلسته المنعقدة فى ٥ أغسطس ١٥٣٣ فى مدينة مونزون ورفعها إلى الملك شارل، وتضمنت هذه المذكرة المكونة من ستة عشر بندًا شكاوى من قيام بعض المحققين فى المكتب المقدس بإلقاء القبض على بعض الناس والزج بهم فى السجن لارتكابهم إساءات ذات طابع شخصى وليست لها أدنى صلة بالهرطقة، أو بممارسات المكتب المقدس، مثل المثلية والربا وتعدد الزوجات، وبذلك يكون هؤلاء المحققون قد تجاوزوا صلاحيتهم، وأيضًا تضمنت المذكرة شكوى من أن المحققين فى محاكم تفتيش أراجون وكاتالونيا وبلنسية يحتفظون بأعداد ضخمة من الحراس (المألوفين) الذين يعيثون فى الأرض فسادًا، وتتناول مذكرة الاحتجاج المشار إليها المسلمين الذين أرغموا على اعتناق المسيحية دون تقديم أية رعاية أو تعليم مسيحى لهم، فضلًا عن قلة عدد الكنائس التى يمكنهم ارتيادها، ورغم ما يلقاه هؤلاء المسلمون المتحولون إلى المسيحية من إهمال وعدم وجود أى إرشاد مسيحى يهديهم سواء السبيل، فإن محاكم التفتيش تحاكمهم بتهمة الهرطقة، والأدهى من ذلك أن هذه المحاكم لم تجد أدنى غضاضة فى مصادرة ممتلكات المسلمين الذين أرغموا على اعتناق المسيحية، ولكن المفتش العام ألونسو ماتريك لم يكترث بهذه الاعتراضات أو يبالى بها.

ومن المؤسف أن قبضة المكتب المقدس الحديدية وهيمنة محاكم التفتيش حالتا دون الاكتراث بالاحتجاجات التى وجهت ضد محاكم التفتيش عام ١٥٣٣، ولأن هذه المحاكم حصلت على مباركة الملك والكرسى البابوى فإنها استطاعت بسط نفوذها دون منازع على العباد، وبحلول

منتصف القرن السادس عشر أصبحت هذه المحاكم قلاعًا حصينة لا يمكن التغلب عليها. ومما شد من أزر هذه المحاكم وزاد من حدتها أن غالبية المسيحيين القدامى كانوا يساندونها ويتجاهلون انتهاكاتها ضد اليهود المتحولين إلى المسيحية، والجدير بالذكر أن المسيحيين القدامى لم يقفوا فى وجه محاكم التفتيش إلا بعد أن امتد أذاها ليشملهم.

ومن المعروف أن حركة الإصلاح الدينى المعروفة بـ Reformation، أو الپروتستانتية قويت واشتد ساعدها فى جميع أرجاء القارة الأوروپية فى القرن السادس عشر، ولهذا كان من الطبيعى أمام طوفان الدعوة إلى الإصلاح الدينى الكاسح أن يشعر المسيحيون أنهم قد أصبحوا فى خندق واحد مع المكتب المقدس الذى تعرض للهجوم العاتى الذى شنه المصلحون الدينيون عليه، والذى لا شك فيه أن مساندة الملك لمحاكم التفتيش ساعدتها على الصمود أمام المحتجين عليها والمعارضين لها، فقد كانت هذه المحاكم بمصادرتها لممتلكات اليهود المتحولين تدر دخلًا كبيرًا على الخزانة الملكية، وقد سار الملك شارل فى دعمه لمحاكم التفتيش على نفس الدرب الذى سبق لسلفه فرديناند أن سار عليه، بل إن شارل أدخل نظام محاكم التفتيش فى هولندا عام ١٥٢٠، وعندما احتدم الخلاف حول ضرورة تبرئة چوان برات عام ١٥١٨ وإطلاق سراحه، قام الملك بتحذير البرلمان من مغبة الدعوة إلى إصلاح محاكم التفتيش، حيث قال: «يجب أن تتأكدوا من استعدادنا لفقدان جزء من ممالكنا ودولنا، ولكننا لا نسمح بالإساءة إلى مجد الله أو سلطة المكتب المقدس».

واللافت للنظر أن محاكم التفتيش وجدت تأييدًا فى كستيلا أكبر وأوسع نطاقًا من التأييد الذى وجدته فى أراجون، ويرجع ذلك إلى أن محكمة التفتيش فى كستيلا لم تلحق أية أضرار مادية بغير اليهود المتحولين إلى المسيحية، وأنها لم تفرض أية ضرائب على الشعب، كما أنها استرضت كثيرًا من أعيان كستيلا وأشرافها بتعيينهم كمألوفين أو حراس فى هذه المحاكم، ولكن محاكم التفتيش فى المناطق الأخرى وخاصة أراجون لم تحظ بنفس التأييد الكبير الذى حظت به فى كستيلا. وفى إيطاليا وأراجون وكاتالونيا كان أشراف المجتمع يحسدون محاكم التفتيش على ما تستأثر به من مغانم وأسلاب، فضلًا عن أن رجال الأكليروس المحليين فى بعض هذه المناطق كانوا لا يحملون الود للمحققين؛ لأن هؤلاء المحققين كانوا فى العادة غرباء وأجانب عن البلاد ولا يتحدثون لغتها، وقد كتب محقق محكمة تفتيش ناڤار عام ١٥٤٧ يقول: «نحن مكروهون كموظفين فى المكتب المقدس وبالذات فى مدينة ناڤار» وفى نهاية القرن السادس عشر صارت محاكم التفتيش فى المناطق الجبلية الإسپانية والتى لا تتحدث اللغة الإسپانية أمرًا مرفوضًا.

ونذكر فى هذا الصدد أن الشعب فى بلدة فال دران فى منطقة جبال الپيرنيز الكاتالاتية كاد فى عام ١٥٧٤ أن يفتك بموظف من محاكم التفتيش، ولكنه فلت من الموت بأعجوبة، وأضاف هذا المحقق فى تقرير له ما يلى: «إن الأهالى فى هذه البلاد لا يسمحون بأى حال من الأحوال بدخول المكتب المقدس فيها»، وأيضًا لقيت محكمة تفتيش كاتالونيا معارضة شديدة من الأهالى؛ ولذا نرى المحققين عام ١٦١٨ يشكون قائلين: «فى هذه المنطقة يحمل الأهالى البغضاء لمحكمة المكتب المقدس ويودون لو أنهم استطاعوا تدميرها».

ويذكر أن محاكم التفتيش فى أراجون وبلنسية استهدفت المسلمين الذين اعتنقوا الدين المسيحى، كما أن محكمة تفتيش كاتالونيا استهدفت المهاجرين الفرنسيين، وبوجه عام يمكن القول إن شعوب المناطق الشرقية من شبه الجزيرة الإسپانية لم تظهر أى تأييد حقيقى لمحاكم التفتيش، كما يمكن القول إن بقية شبه الجزيرة الإسپانية قبلت محاكم التفتيش بالتدريج، ولكنها لم تتحمس لها، ومن الخطأ أن نعتقد أن كل طوائف الشعب الإسپانى عارضتها، فقد كان المسيحيون القدامى فى كستيلا ينتصرون لها ضد المسيحيين الجدد (أى اليهود المتحولين إلى المسيحية) ولكن الممالك الإسپانية الأخرى ساندتها عن كره وعلى مضض، غير أن الاعتراض عليها مهما بلغت شدته لم يرق فى مجمل عين الجماهير الإسپانية التى تطلعت إلى هذه المحاكم لاجتثاث الهرطقة من جذورها والمحافظة على التقاليد والأخلاق العامة، وشيئًا فشيئًا تسللت محاكم التفتيش إلى نسيج التاريخ الإسپانى بحيث أصبحت جزءًا لا يتجزأ منه، فلا غرابة أن نراها تحتفظ بقوة دفعها على مدى ثلاثة قرون متتالية.

مناعة **إسپانيا** ضد المذهب **الپروتستانتى** وحركة الإصلاح الدينى

تطلع نفر قليل من المثقفين والمفكرين الإسپان فى القرن السادس عشر إلى ما يحدثه عصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى من تغيرات فى المفاهيم والأفكار، رغم أن چوان دى فيرجار يقول إن كثيرًا من الإسپان عبروا فى بادئ الأمر عن شديد إعجابهم بالمصلح الپروتستانتى المعروف مارتن لوثر، وشارك بعض الإسپان الأوروپيين صحوتهم إبان عصر النهضة، وأولوا الدراسة وتحصيل العلوم كل اهتمامهم، ويعتبر أنتونيو دى نبريجا واحدًا من أوائل المتطلعين إلى ترسيخ صرح الدراسات العلمية فى إسپانيا (وإيطاليا هى أول قطر أوروپى ينبعث فيه عصر النهضة)، وقد لعب بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية دورًا بارزًا فى إقامة نهضة علمية فى إسپانيا، وكان على رأسهم سسنيروس رئيس أساقفة طليطلة ابتداء من عام ١٤٩٥، والمحقق العام ابتداء من عام ١٥٠٧. أسس سسنيروس جامعة ألكالا الإسپانية التى أصبحت مركزًا للدراسات الإسپانية، إلى جانب

بنريجا الذى امتدحه فيلسوف عصر النهضة الكبير إرازموس عام ١٥٢١، وكان ضمن أساتذة ألكالا عالمان يهوديان تحولا إلى المسيحية هما چوان دى فيرجار وشقيقه فرنسيسكو دى فيرجار الذى وصفه البعض بأنه أعظم دارس كلاسيكيات عرفته إسپانيا، وقد كلف سسنيروس أساتذة الجامعة بإصدار نسخة من الكتاب المقدس بلغات مختلفة هى العبرية والكالدونية والإغريقية إلى جانب النص اللاتينى، وقد رأت هذه النسخة المتعددة اللغات طريقها إلى النشر عام ١٥٢٢.

وعندما اعتلى الملك شارل (الخامس) سدة الحكم فى إسپانيا عام ١٥١٩، بدأت الحياة تدب فى أوصال الدراسات؛ ولأن الملك شارل كان كثيرًا ما يزور هولندا، فقد رافقه فى زياراته بعض النبلاء الذين اقتفوا أثر الفيلسوف الهولندى إرازموس الذى تغلغلت أفكاره فى الحياة العائلية والحياة الفكرية الإسپانية، وفى عام ١٥١٧ دعا سسنيروس المفكر إرازموس لإلقاء المحاضرات فى إسپانيا ولكن هذا لم يتحقق. ورغم ذلك فقد توفر المثقفون الإسپان على دراسة مؤلفات إرازموس التى تدعو إلى استخدام العلوم والمعارف فى إقامة صرح الدين، وراق لهم سخريته من الممارسات الدينية الخاطئة، ومما شجع الإسپان على الإقبال على دراسة أعمال إرازموس أن الكثيرين فى بلاط الملك شارل حملوا لها الإعجاب، وتغلغلت أفكار إرازموس فى عقول كثير من رجال الكنيسة الإسپانية مثل رئيس أساقفة طليطلة ألونسو دى فونيسكا، وألونسو ماتريك المفتش العام فى محاكم التفتيش، وليس أدل على إقبال المثقفين الإسپان على قراءة أعمال إرازموس من أن بعض أعماله ترجمت إلى الإسپانية عام ١٥٢٤ ورأت طريقها إلى النشر عام ١٥٢٦، وأنها استقبلت أحسن استقبال فى أوساط الأشراف والنبلاء.

ولا شك أن علاقات إسپانيا المنتظمة بكل من هولندا وإيطاليا فى أوائل القرن السادس عشر ساعدت الإسپان على التعرف على منجزات عصر النهضة فى الفنون والآداب، والجدير بالذكر أن الفلسفة التصوفية المؤمنة باتحاد الروح بالذات الإلهية انتشرت آنذاك، إلى جانب استحداث مارتن لوثر للأفكار البروتستانتية فى ألمانيا، واشتم المحققون رائحة الهرطقة تفوح من كلا المذهبين التصوفى والپروتستانتى، حتى أفكار إرازموس الداعية للإصلاح الدينى أصبحت مثارًا للريبة والشك، وقام المفتش العام مانريك بالقبض على زعماء المذهب التصوفى، وتم القبض على إيزابل وألكازار فى أبريل عام ١٥٢٤، وفى يوم ٢٣ سبتمبر عام ١٥٢٥ أصدر مانريك مرسومًا يدين أتباع هذا المذهب، وفى مدينة طليطلة أصدرت محكمة التفتيش يوم ٢٢ يوليه ١٥٢٩ عملًا إيمانيًّا (أى حكمًا بالموت) على كل من إيزابل وألكازار، ثم وجه المحققون أنظارهم صوب مدينة أخرى هى فيلادوليد (بلد الوليد)، حيث نجحت المتصوفة فرنسيسكا هرناندنج التى طبقت شهرتها الآفاق

فى اجتذاب المعجبين بها والمريدين لها، وكان المبشر فرنسيسكو أورتيز على رأسهم. وعندما ألقت محكمة التفتيش القبض عليها فى مارس ١٥٢٩ استشاط مريدها المبشر فرنسيسكو أورتيز غضبًا، واعتلى المنبر ليهاجم ما سماه خطيئة المحققين فى القبض عليها، فقام المحققون على الفور بالقبض عليه وحبسه حبسًا انفراديًّا فى أحد الأديرة.

وكذلك تعرض مريدو المصلح الدينى إرازموس فى إسپانيا للملاحقة والأذى، ويعتبر رجل الدين دييجو دى أوسيدا من أوائل الذين تعرضوا للعنف والاضطهاد بسبب إيمانهم بأفكار إرازموس الداعية إلى تحرير الدين المسيحى من الخزعبلات. كان دى أوسيدا فى فبراير ١٥٢٨ على سفر من مدينة بورجوس إلى مسقط رأسه فى قرطبة، فتشاجر مع أحد رفقاء الطريق عندما تحمس دى أوسيدا فى دفاعه عن أفكار مارتن لوثر، ودعا إلى تحرير الدين المسيحى من الترهات، وقام رفيق الطريق بتبليغ محاكم التفتيش عنه فأمرت بالقبض عليه وتعذيبه وإصدار عمل إيمانى (أى حكم بالإعدام) ضده فى ٢٢ يوليه ١٥٢٩ رغم سلامة عقيدته وممارساته الدينية.

والجدير بالذكر أن عقد العشرينيات من القرن السادس عشر فى إسپانيا شاهد خليطًا لم ترض عنه محاكم التفتيش من دعوات الهراطقة والصوفية وأفكار إرازموس الدينية المتحررة التى تقلل من أهمية الكنيسة وطقوسها. وسعى المحققون إلى ملاحقة أفكار مارتن لوثر فى كل مكان، كما أنهم ارتابوا فى أفكار المتصوفين الذين كان سوادهم الأعظم من اليهود المعتنقين للنصرانية أمثال إيزابيل ـ ألكازار ـ هرنانديز ـ أورتيز ـ توفار. وبدا كما لو كان هؤلاء اليهود المتحولون يسعون إلى نبذ الكنيسة الكاثوليكية عن طريق إدخال البدع فيها. وفى عهد ملك كاستيلا چوان الثانى (المتوفى عام ١٤٥٤) أوصى يهودى متحول إلى المسيحية يدعى ألفونسو فرنانديز صامويل أن يكون فى نعشه الصليب أسفل قدميه والمصحف على صدره والتوراة التى وصفها بأنها حياته ونور عينه فوق رأسه.

ومنذ اللحظة الأولى لإلقاء القبض عليها حاولت هرنانديز أن تهرب بجلدها من الموت، ومن ذلك بإلقاء التهم على كل من حملت له الكراهية. وعندما قدمت إلى المحاكمة عام ١٥٣٠ اتهمت چوان دى فيرجار بأنه من أتباع البروتستانتى مارتن لوثر، الأمر الذى أدى إلى الزج به فى السجن فى يونيه ١٥٣٠، وكذلك تم فى أبريل ١٥٣٢ القبض على ماريا دى كازالا وتعذيبها واتهامها باعتناق الهرطقة اللوثرية فضلًا عن الإيمان بأفكار إرازموس الدينية المتحررة والأفكار التصوفية، وامتدت فترة هذه المحاكمة حتى شهر ديسمبر ١٥٣٤، وبالنظر إلى إعلان ندمها اكتفت المحكمة بتغريمها وإلزامها بعدم الاختلاط مع المتصوفين، والجدير بالذكر أن معظم المقبوض عليهم بتهمة التصوف

نجوا بجلدهم من الموت بسبب رأفة المحكمة بهم. ورغم هذه الأحكام المخففة الصادرة ضد أتباع المذهب التصوفى، فقد استمرت محاكم التفتيش فى تعقب دعاة التصوف. فألقت القبض على المبشر المشهور چوان دى أفيلا وتم وضعه لمدة عام تقريبًا (١٥٣٢ ـ ١٥٣٣) فى زنزانة أمضاها دى أفيلا فى التأمل. وفى السجن انتهى من تأليف كتاب فى الروحانيات احتفظ به لنفسه حتى رأى طريقه إلى النشر عام ١٥٥٦. وتعرض چوان أفيلا وهو واحد من المسيحيين الجدد فى عقد الخمسينيات فى القرن السادس عشر إلى اضطهاد المفتش العام فالديه، الذى فرض حظرًا على كتابه عام ١٥٥٩، الأمر الذى أصابه بالقنوط بإحراق عدد كبير من مخطوطاته، غير أن بعض النسخ المخطوطة من الكتاب المحظور ذاعت وانتشرت، وبعد وفاة المؤلف عام ١٥٦٩ سمحت محاكم التفتيش بنشر كتابه المحظور عام ١٥٧٤.

ولكن المصلح الدينى المعروف مارتن لوثر بأفكاره الپروتستانتية أصبح الخطر الداهم الذى أحاق بمحاكم التفتيش، ويتمثل خطر الپروتستانتية فى أنها نجحت فى التسلل إلى بعض المسيحيين القدامى، أى الكاثوليك الأصليين مثل القسيس چوان لويز دى سيلين الذى ألقت محاكم التفتيش القبض عليه فى عام ١٥٢٨ وقامت بحرقه فى غرناطة فى يوليه عام ١٥٣٠ بتهمة اعتناق اللوثرية أى المذهب الپروتستانتى، وهى إحدى التهم التى وجهت إلى چوان دى فيرجارا الذى كان سكرتير المصلح الدينى سسنيروس، ثم أصبح سكرتير خلفه ألونسودى فونسيكا رئيس أساقفة طليطلة (توليدو)، وكان فيرجارا واحدًا من أعلام الكلاسيكيات فى إسپانيا وأستاذ كرسى الفلسفة فى جامعة ألكالا.

ألقى القبض على فيرجارا عام ١٥٣٠ وصدر ضده حكم بالسجن، كما صدر ضده عمل إيمانى (حكم بالإعدام) فى طليطلة يوم ٢١ ديسمبر ١٥٣٥، كما حكم عليه بدفع غرامة كبيرة قدرها ١٥٠٠ دوقة. غير أن توبته شفعت له فاستعاد مكانته فى المجتمع قبل أن يتوفى مكرمًا فى ألكالا فى مايو ١٥٦٦، وكان مبشر الملك شارل الخامس الدينى ألونسو دى فيرتوى المنتمى إلى طائفة الرهبان البنديكتيين أول لصيق بهذا الملك توجه إليه تهمة الهرطقة. وتم القبض عليه عام ١٥٣٣ وظل نزيلًا فى سجن إشبيلية لمدة أربعة أعوام. وعبثًا حاول هذا الرجل أن يدافع عن المصلح الدينى إرازموس وأن يبين أن هذا الفيلسوف الهولندى لم توجه إليه تهمة المروق الدينى قط. وتدخل الملك شارل الخامس وبذل جهدًا جهيدًا لإنقاذ مبشره حتى استطاع فى مايو عام ١٥٣٨ الحصول على مرسوم باباوى بإلغاء العقوبة ضده وأعيد الرجل إلى مكانته، وفى عام ١٥٤٢ عين أسقفًا فى جزر الكنارى حيث توفى عام ١٥٤٥.

وأيضًا اتهم أستاذ آخر بجامعة ألكالا الإسپانية يدعى چوان فالديه بتهمة اعتناق الأفكار

البروتستانتية، فقد نشر عام ١٥٢٩ مبحثًا لاهوتيًّا بعنوان «حوار مع المذهب المسيحى» استقاه من كتابات مارتن لوثر الباكرة، وكان هذا المبحث سببًا فى غضب محاكم التفتيش عليه، الأمر الذى اضطره فى عام ١٥٣٠ إلى الهروب إلى إيطاليا قبل بدء محاكمته وكذلك فى عام ١٥٣٣ اشتبهت محاكم التفتيش فى عميد كلية سان إيكلافونسو بجامعة ألكالا والراعى العام لأسقفية سرقسطة (ساراجوسا) بسبب علاقته بچوان دى فالديه، فقامت بسجنه فى طليطلة، ورغم إطلاق سراحه فقد آثر الرجل مغادرة مملكة كستيلا والعيش فى روما حيث توفى عام ١٥٥٣.

وتضم قائمة ضحايا محاكم التفتيش اسم ميجويل دى إجيويا مطبعجى جامعة ألكالا الذى وشت به فرنسيسكا هرنانديز التى أرادت أن تهرب بجلدها من هذه المحاكم. وبسبب اتهام فرنسيسكا لهذا المطبعجى بالإيمان بالپروتستانتية زجت به هذه المحاكم بالسجن عام ١٥٣١، حيث أمضى أكثر من عامين فى زنزانة بسجن محكمة التفتيش فى فيلادوليد (بلد الوليد)، ولكن المحكمة ما لبثت أن أفرجت عنه بنهاية عام ١٥٣٣، وبرأته من تهمة الإيمان باللوثرية، وكان بيدور دى ليرما رئيس جامعة ألكالا أسوأ حظًّا من مطبعجى الجامعة، إذ تأثر بيدور ليرما بفلسفة إرازموس الإصلاحية، كما أنه تولى نشر مواعظه، وأرغمته محاكم التفتيش على التنكر لآرائه علنًا وفى كل البلدان التى مارس التعليم فيها، كما أرغمته على التنكر للمبادئ التى بشر بها. ولهذا فضل الرجل أن يهرب إلى پاريس، حيث أسندت إليه عمادة كلية اللاهوت بجامعة السوربون، وهى نفس الوظيفة التى كان يشغلها فى الماضى، ومات الرجل فى پاريس فى أغسطس عام ١٥٤١. وبات من الواضح أن محاكم التفتيش تدفع فلسفة إرازموس والمذهب الإنسانى الناشئ حديثًا وتقرنهما بما تسميه الهرطقة الپروتستانتية التى ظهرت فى ألمانيا على يدى مارتن لوثر. وفى ديسمبر عام ١٥٣٣ كتب رودريجو مانريك، ابن المفتش العام المشار إليه سابقًا، خطابًا أرسله من پاريس إلى چوان لويس فيف حول سجن فريجارا ظلمًا وعدوانًا، جاء فيه أن إسپانيا أصبحت موطئ الوحشية والبربرية، حيث لا يمكن لمثقف أن يتفادى توجيه تهم الهرطقة والتهويد إليه، الأمر الذى أخرس ألسنة العلماء والدارسين. وشكا الرجل فى خطابه من أن جامعة ألكالا عملت كل ما فى وسعها لاجتثاث شأفة الدراسات الإغريقية.

ورغم المكانة السابقة التى تمتع بها إرازموس فى البلاد الكاثوليكية وتكريم بابا روما له، فإن جمهور القراء الإسپان انصرفوا عنه بحيث لم يقبل على قراءته غير أهل العلم والدارسين فقط، ولم ينصرم القرن السادس عشر حتى قلب له الإسپان ظهر المجن وتنكروا لأفكاره التى اقترنت فى أذهانهم بالمذهب الپروتستانتى والمذهب الإنسانى الجديد، وعكف الدارسون

الإسپان على توضيح انبثاق المذهب الپروتستانتى من المذهب التصوفى المعروف الآنف الذكر، فضلًا عن توضيح أن الپروتستانتية استغلت أفكار المصلح الدينى إرازموس لخدمة أغراضها، ورأى كثير من الإسپان أن بنى جلدتهم اتخذوا من فلسفة إرازموس قناعًا لإخفاء إيمانهم سرًّا بالمذهب الپروتستانتى، وعلى أية حال لا بد لنا أن ندرك أن شبه القارة الإسپانية استغرقت وقتًا قبل أن تتخللها أفكار مارتن لوثر، وأغلب الظن أن القارئ الإسپانى ظل يجهل اسم لوثر حتى عام ١٥٢٠، وأن معرفته بكتاباته جاءت بعد ذلك، وأنها اقتصرت على نبلاء البلاط الذين رافقوا مليكهم شارل الخامس فى زيارته لألمانيا، وعلى أية حال فإن الأفكار الپروتستانتية عجزت عن أن تنمو وتترعرع فى التربة الإسپانية، وعلى الرغم من أن محاكم التفتيش الإسپانية قبل عام ١٥٥٨ نظرت نحو خمسين حالة من حالات الاتهام باعتناق الپروتستانتية، فإن معظم الاتهامات لم يكن لها أساس من الصحة، والجدير بالذكر أن إسپانيا لم تجتحها أى من الهرطقات التى اجتاحت إنجلترا وفرنسا وألمانيا، أى أن الهرطقة الإسپانية كانت محدودة للغاية، وتركزت جهود الإسپان للتصدى للديانتين اليهودية والإسلام اللتين اعتنقتهما الأقليات. وكما أسلفنا فإن البلاط الملكى الذى رافق الملك شارل الخامس فى زيارته إلى ألمانيا هو وحده الذى اطلع على أفكار مارتن لوثر وتأثر بها على نحو مشوش وغير واضح.

تعتبر إشبيلية التى كانت مركزًا للتجارة الدولية أكثر بلدان إسپانيا تعرضًا للأفكار اللوثرية. ففى عام ١٥٥٢ قامت محكمة تفتيش إشبيلية بضبط أربعمائة وخمسين نسخة مهربة من الإنجيل تم طبعها خارج إسپانيا. ولكن الهرطقة بوجه عام لم تجد تربة خصبة فى إسپانيا، حيث ظلت محدودة للغاية، ويرجع السبب فى ذلك بطبيعة الحال إلى يقظة محاكم التفتيش. قلنا إن الأفكار الپروتستانتية وجدت شيئًا من الرواج فى مدينة إشبيلية؛ لأنها كانت مركزًا للتجارة العالمية، ومع ذلك فإن عدد الإسپان الذين اعتنقوا الأفكار الپروتستانتية آنذاك قد لا يزيد على مائة وعشرين شخصًا بعضهم رهبان فى دير سان أزيدرو وراهبات فى دير سانت پولا.

وأيضًا ظهر بعض المتعاطفين مع الپروتستانتية فى شمال كستيلا يتزعمهم إيطالى يدعى كارلوس دى سيسر، الذى اعتنق الأفكار اللوثرية. واستطاع هذا الرجل بسبب حماسه للبروتستانتية نشر أفكاره اللوثرية فى مدينة فيلادوليد (بلد الوليد) بين ما يقرب من خمسة وخمسين إسپانيًّا معظمهم من طبقة النبلاء ومن اليهود المتحولين إلى المسيحية، ولعل أهم من اعتنق الپروتستانتية من الإسپان هو الدكتور أغسطين كازال الذى زار ألمانيا فى معية الملك شارل الخامس. والجدير بالذكر أن عائلة كازال برمتها آمنت بالپروتستانتية، وفى عام ١٥٥٧ شنت محاكم التفتيش هجومًا على الإسپان

المتحولين من الكاثوليكية إلى البروتستانتية فى مدينة إشبيلية، ثم قامت هذه المحاكم فى العام التالى (١٥٥٨) بمداهمة عدد آخر من الإسبان البروتستانت.

لم يكن الملك شارل (الذى أصبح الإمبراطور شارل الخامس والذى تنازل عن الحكم عندما تقدم به العمر) بحاجة لمن يستحثه لمقاومة البروتستانتية، فقد تصدى لها بدون هوادة أو رحمة. أرسل هذا الرجل خطابًا تاريخيًّا فى يوم ٢٥ مايو ١٥٥٨ إلى ابنته وولية العهد چوانا ناشدها فيه اتباع نفس سياسته الصارمة فى محاربة الهرطقة البروتستانتية، كما عبر لابنته عن حنقه الشديد على النبلاء والأشراف ممن يتبعون الغواية اللوثرية فى حضرته وحضرتها. ويذكر الرجل لابنته أن صحته تدهورت فى حربه الضروس ضد الهرطقة، وطلب إليها أن تبادر على الفور بقمع الهرطقة اللوثرية ونصحها بعدم اتباع القانون العام الذى يخفف العقوبة الموقعة على المهرطقين الذين يندمون على هرطقتهم؛ حيث إن الهرطقة البروتستانتية تمثل فى رأيه خطرًا داهمًا على أمن إسپانيا وسلامتها، ومن ثم فإنه ينصح بمعاملتهم كمتمردين وخارجين على القانون. ويقول شارل إنه أراد إدخال نظام محاكم التفتيش فى فلاندرز لمقاومة الهرطقة الوافدة من ألمانيا وإنجلترا وفرنسا، ولكن أشراف فلاندرز عارضوه بشدة لعدم وجود أى يهودى فيها، ويذكر شارل الخامس أنه نجح بالرغم من ذلك فى إصدار أمر بإحراق ومصادرة أملاك المهرطقين فى بعض الظروف والحالات المعينة، وأيضًا يذكر الملك المتقاعد أنه أوصى ابنته باستخدام أقسى صنوف الشدة فى التعامل مع المهرطقين.

ويعتبر خطاب الملك شارل العجوز لابنته نقطة تحول فى تاريخ إسپانيا التى اعتبرت أى خروج على الكاثوليكية بمثابة تمرد على النظام العام. فلا عجب إذا رأينا المفتش العام فالايس يكتب بتاريخ ٩ سبتمبر من نفس العام (١٥٥٨) إلى البابا لينبهه إلى الفتنة الكبرى التى سوف تجتاح الكنيسة الكاثوليكية نتيجة انتشار أفكار مارتن لوثر البروتستانتية. وفى هذا الجو المشحون أصدرت محاكم التفتيش الإسپانية عددًا من الأعمال الإيمانية لحرق البروتستانت، وصدر أولها فى مدينة فيلا دوليد (بلد الوليد) بتاريخ ٢١ مايو ١٥٥٩ بحضور ولية العهد چوانا وبلاطها، حيث حكم على أربعة عشر بروتستانتيًّا بالحرق (منهم كازالا وأخوه وأخته) من بين ثلاثين متهمًا بالبروتستانتية ندموا واستغفروا على ضلالهم ومروقهم باستثناء واحد فقط هو فرنسسكو هيريرو من تورو، الذى ظل يتشبث بمعتقداته البروتستانتية حتى آخر رمق فى حياته.

وكذلك صدر عمل إيمانى ثانٍ فى مدينة فيلا دوليد (بلد الوليد) يوم ٨ أكتوبر (١٥٥٩) فى حضرة الملك فيليب الذى كان قد عاد إلى إسپانيا وذلك فى احتفال مهيب أقيم تكريمًا له بمناسبة رجوعه إلى أرض الوطن، واشتمل هذا العمل الإيمانى (أى الحكم بالإعدام) على ثلاثين متهمًا

بالپروتستانتية ثبتت تهمة الهرطقة اللوثرية على ستة وعشرين منهم، وتم إحراق اثنى عشر بروتستانتيًّا وپروتستانتية (من بينهن أربع راهبات) على الخشبة. وهناك رواية أن كارلوس دى سيسو طلب الصفح والغفران من المحققين، ولكنهم أرادوا أن يجعلوه عبرة لمن يعتبر، وعندما تبين دى سيسو أن محكمة التفتيش عاقدة العزم على حرقه، يقال (ولكن الرواية ليست مؤكدة) إنه صاح فى وجه الملك «كيف تسمح لهذا أن يحدث؟» فرد عليه الملك قائلًا: «إننى على أتم استعداد لأن أمسك بنفسى خشبة حرقك».

ولكن مدينة إشبيلية أظهرت عداء سافرًا لمحاكم التفتيش؛ حيث عبرت عن تعاطفها مع المهرطق البروتستانتى كونستاتينو. وقد صدر أكبر عمل إيمانى فى إشبيلية يوم الأحد ٢٤ سبتمبر ١٥٥٩، حيث أحرق بتهمة البروتستانتية ثمانية عشر مهرطقًا من بين قائمة تضم ستة وسبعين متهمًا بالهرطقة، وتلا هذا العمل الإيمانى عمل إيمانى آخر يوم الأحد الموافق ٢٢ ديسمبر ١٥٦٠ ضم خمسة وأربعين متهمًا بالهرطقة، تم إحراق أربعة عشر منهم أحياء وثلاثة على هيئة دمى. وبلغ عدد المتهمين منهم بالپروتستانتية أربعين مهرطقًا. وكان أديجيو وكونستاتينو من بين الثلاثة الذين أحرقت دماهم، فى حين كان من بين الذين أحرقوا بالفعل بحاران إنجليزيان هما ويليام بروك، ونيكولاس بيرتون، وواحدة من أهالى إشبيلية اسمها لينورجوميز وبناتها الثلاث الشابات. وبعد انقضاء عامين تبع هذا العمل الإيمانى عمل إيمانى آخر صدر فى ٢٦ أبريل ١٥٦٢، ثم عمل إيمانى لاحق فى ٢٨ أكتوبر من نفس العام. والجدير بالذكر أن عام ١٥٦٢ شهد ثمانية وثمانين عقوبة صدرت ضد المهرطقين الپروتستانت، أحرق منهم ثمانية عشر شخصًا من بينهم كبير كهنة سان أيزيدور وأربعة من قساوسته.

وعن طريق عقاب الپروتستانت وحرقهم، خلت إسپانيا من أتباع مارتن لوثر، وفى شهر سبتمبر عام ١٥٥٩ وضعت ملصقات على جدران المنازل ومبنى الكاتدرائية تهاجم الكنيسة الكاثوليكية لأنها «ليست كنيسة يسوع المسيح، بل كنيسة الشيطان والبابا عدو المسيح»، واتضح أن قسيسًا يدعى سباستيان مارتينيز هو الذى وضع هذه الملصقات، فقامت السلطات بالقبض عليه وإحراقه عام ١٥٦٠. وفى نفس الوقت انتشرت فى مدينة إشبيلية نبذات وكتيبات تهاجم «المحققين اللصوص الذين يسرقون الناس علنًا، والذين أحرقوا عظام كل من أجيديو وكونستانتينو بدافع الغيرة والحسد». وأيضًا هاجمت النبذات محاكم التفتيش وأطلقت عليها اسم مجامع الشيطان.

وانتاب الإسپان الذعر من جراء إصدار هذه الأعمال الإيمانية حتى عام ١٥٦٢، فأخذوا يسعون للإمساك بأى شخص يشتمون من كلامه رائحة الهرطقة الپروتستانتية. وانتهى هذا الجو

المحموم بالقبض على عشرات الإسپان نتيجة زلة لسان، أو امتداح مارتن لوثر فى غفلة من أمرهم، أو نتيجة الهجوم على رجال الكنيسة الكاثوليكية.

ورغم تقدم المحقق العام فالديس فى العمر واعتلال صحته، فإنه حاول إقناع الملك فيليپ الثانى بقرب حدوث طامة كبرى من جراء انتشار الهرطقة، وفى مايو ١٥٥٨ كتب إلى الملك فيليپ الموجود آنذاك فى بروكسيل يحذره من خطر انتشار كتب مارتن لوثر فى سالانيكا وأماكن أخرى، ومن مشاكل المسلمين المتحولين إلى المسيحية، ومن اكتشاف تهويد بَيِّن فى مورشيا، وأتباع لمارتن لوثر فى فيلا دوليد وإشبيلية. وقامت السلطات فى مورشيا بإعدام عدد كبير من الناس استنادًا إلى تهم واهية. وطالب المحقق العام فالديس بضرورة إطلاق يد محاكم التفتيش لاستئصال هذا الخطر الداهم، كما اقترح إنشاء محاكم تفتيش جديدة فى كل من جاليشيا وأستورياس وإقليم الباسك، وإقامة محكمة تفتيش إضافية فى مدينة فيلا دوليد، إلى جانب إنشاء حرس لحماية الكنيسة الكاثوليكية من شرور الهرطقة فى كل مكان، وعدم السماح بنشر أى كتاب أو بيعه إلا بعد أخذ موافقة محاكم التفتيش، ولكن لحسن الحظ أن الملك فيليپ لم يكترث بهذه المقترحات فقد كان من الواضح أن رئيس المحققين فالديس يبالغ فى تضخيم أخطار البروتستانتية، حتى التهويد لم يعد مشكلة تؤرق الإسپان. ولهذا فتر الحماس لإصدار الأعمال الإيمانية ضد الهرطقة البروتستانتية.

وبوجه عام لم تشهد إسپانيا الاضطهاد العاتى والدموى للپروتستانتية الذى كابدته كثير من البلاد الأوروپية الأخرى. ومن المحتمل أن عدد المهرطقين فى إسپانيا الذين حكم عليهم بالإعدام فى الفترة من ١٥٥٩ حتى ١٥٦٦ كان أقل كثيرًا من ألف شخص، وهو رقم متواضع بالمقارنة بأحكام الإعدام الصادرة آنذاك ضد الهرطقة البروتستانتية فى كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا الأمر الذى جعل الملك فيليپ الثانى يفاخر عن حق أن إسپانيا كانت أكثر البلاد صحة وعافية من ناحية اضطهاد البروتستانت.

ورغم أن البروتستانتية فى إسپانيا لم تكن تمثل أى خطر حقيقى، فإن وثائق محاكم التفتيش تسجل بعض حالات البروتستانت الذين صدرت ضدهم أعمال إيمانية، ويقدر عدد الإسپان المتهمين بالهرطقة البروتستانتية فى العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر بنحو مائتى شخص كان معظمهم فى واقع الأمر لا ينتمون إلى المذهب البروتستانتى، بل مجرد دعاة إصلاح دينى أو سكارى يسخرون من الإكليروس أو مواطنون ينتقدون رجال الكنيسة الكاثوليكية. بل إن محاكم التفتيش اعتبرت أكل المسيحى للحوم فى أيام الصيام مؤشرًا على الهرطقة. وأيضًا اتهمت امرأة

جاهلة فى طليطلة عام ١٥٦٨؛ لأنها قالت إن المسيحى بعد موته يذهب مباشرة إلى الجنة، فاعتبر كلامها إنكارًا لوجود المطهر الذى يؤمن الكاثوليك بوجوده.

ومن المهرطقين الذين رفضوا أن يتزحزحوا قيد أنملة عن هرطقتهم بسبب اقتناعهم بها النبيل جاسبار دى سنتيل الذى أحرق فى مملكة ڤالنسيا عام ١٥٦٤، وفراى كريستوبول دى مورالس الذى أحرق فى غرناطة عام ١٥٧١.

والجدير بالذكر أن كثيرًا من الإسبان المعتنقين لمبادئ مارتن لوثر الإصلاحية هاجروا من إسبانيا واستقروا فى البلاد الأوروپية، حيث تركوا بصمات واضحة فى حياتها الثقافية والفكرية. وعندما اكتشفت الحكومة بعض الخلايا البروتستانتية فى إشبيلية وفيلا دوليد، فر أعضاؤها إلى خارج البلاد، حيث أسهموا فى صنع حركة الإصلاح الدينى المعروفة التى عمت أوروپا فى القرن السادس عشر حتى منتصف القرن السابع عشر.

وتضايقت الحكومة الإسپانية من فرارهم إلى أوروپا، فسعى الملك فيليپ الثانى إلى إرجاعهم إلى إسپانيا. وطبقًا للتقرير الذى رفعه السفير الإسپانى كوادر فى لندن عام ١٥٦٠، نرى كثيرًا من البروتستانت يلجأون إليها ترافقهم زوجاتهم وأولادهم. وفى عهد شارل الخامس فى عقد الأربعينيات من القرن السادس عشر، تم ترحيل كثير من الإسپان الذين اعتنقوا البروتستانتية فى البلاد الأوروپية المختلفة وإعادتهم إلى بلادهم بهدف وضعهم تحت المراقبة منعًا لهم من الانفلات. وبطبيعة الحال نجد أن الأمر كثيرًا ما تجاوز حدود المراقبة ليجعلوا منهم عبرة لكل مارق أثيم. وأحيانًا كان الترحيل يتم عنوة عن طريق عملاء يعيشون فى هولندا، مثل ألونسو ديل إيرازو سكرتير الملك فيليپ الثانى، الذى يقوم بتمويل عمليات الاختطاف والترحيل ويشرف عليها، فضلًا عن اتباع سياسة دس الجواسيس على الإسپان البروتستانت فى بلاد الغربة مثل إنجلترا وهولندا وألمانيا. ولعل أهم إنجاز حققه العملاء هو إقناع فيوريو سيريول المعروف بإيمانه بالمذهب الإنسانى بالعودة إلى إسپانيا عام ١٥٦٣، ولا شك أن مراقبة الحكومة الإسپانية للبروتستانت الإسپان فى الخارج سهل عليها معرفة تحركاتهم. فعلى سبيل المثال قام العميل كانتو فى عام ١٥٦٤ بتبليغ الحكومة فى مدريد بأن چوان بيريز دى بينيدا يزمع إصدار نسخة من الكتاب المقدس مترجم إلى الإسبانية، وكما نعرف جرت عادة البروتستانت أن يترجموا الكتاب المقدس من اللغة اللاتينية إلى مختلف اللغات الأوروپية تيسيرًا لفهم عامة الناس له، وهذا جزء لا يتجزأ من جوهر الملة البروتستانتية، واشتدت وطأة الهجوم على البروتستانت الوافدين من أوروپا على إسپانيا مثل التجار والبحارة والأجانب المقيمين هناك أكثر مما اشتدت على الإسپان

أنفسهم، وقد أدى ذعر الإسپان من الهرطقة إلى كراهية الأجانب. وقد أظهر المكتب المقدس التابع لمحاكم التفتيش الإسپانية العداء لهؤلاء الأجانب منذ وقت باكر يرجع إلى العقد الثالث من القرن السادس عشر. وبسبب النشاط التجارى الإسپانى الواسع، لم يكن هناك مفر من مجىء الأجانب إلى إسپانيا وخاصة الموانى الإسپانية. وكان چون تاك الإنجليزى المنحدر من أصل هولندى أول پروتستانتى تقوم محكمة التفتيش الإسپانية بحرقه فى مدينة بلبو فى مايو ١٥٣٩، وبحلول عام ١٥٦٠ تم القبض على تسعة أجانب آخرين ولكنهم أعلنوا توبتهم. وفى العقد السادس من القرن السادس عشر وفى منطقة طليطلة على وجه التحديد وجه الإسپان تهمة الهرطقة إلى عدد من الفرنسيين والهولنديين المقيمين فى إسپانيا. وكان بعضهم من رفاق الملك فيليپ الثانى أثناء زيارته إلى إقليم فلاندرز، كما جاء البعض الآخر فى موكب الملكة الجديدة إليزابيث فالوا القادمة من فرنسا، ورغم تزايد عدد الأجانب الهولنديين المقيمين فى إسپانيا فى العقد السادس من القرن السادس عشر، فإن معظم المتهمين بالهرطقة فى تلك الفترة جاءوا من فرنسا. وفى برشلونة أعلن المحقق عام ١٥٦٠ عن ضرورة إصدار عمل إيمانى لحماية الأهالى من هرطقة الأجانب، وفى تلك المدينة تم حرق ٥١ مهرطقًا پروتستانتيًّا أجنبيًّا، إما بأشخاصهم أو على هيئة دمى فى الفترة من ١٥٥٢ إلى ١٥٧٨، كما أن معظم حالات الهرطقة فى مملكة ڤالنسيا (پلنسية) فى الفترة من ١٥٥٤ إلى ١٥٩٨ كانت من الأجانب. وتم حرق ثمانية منهم إما بأشخاصهم أو على هيئة دمى. ونفس الشىء نجده فى كالاهورا، حيث نظرت محكمة التفتيش هناك نحو ٦٨ حالة هرطقة پروتستانتية فى الفترة من ١٥٤٠ حتى ١٥٩٩ كان معظمها (٨٢٪ منها) من الأجانب، وفى شمال إسپانيا القريبة من الحدود المفتوحة مع فرنسا، تركزت شبهة الهرطقة مع الفرنسيين. ففى الفترة من ١٥٦٠ حتى ١٦٠٠ قامت محاكم تفتيش أراجون ونڤادا بإعدام ما يقرب من ثمانين فرنسيًّا بتهمة الهرطقة، كما حرقت دمى تمثل مائة مهرطق آخر. كما أنها أرسلت ثلاثمائة وعشرين مهرطقًا كعبيد لتسيير السفن بالمجاديف. ومعنى هذا أن محاكم التفتيش الإسپانية التى دأبت على اضطهاد اليهود والمسلمين المتحولين إلى المسيحية انصرفت فيما بعد إلى توجيه أصابع الاتهام إلى الأجانب.

ولم يسكت بعض الإسپان على هذه الانتهاكات التى ارتكبت باسم الدين، ففى عقد الستينيات من القرن السادس عشر وجه حكماء برشلونة أنظار محاكم التفتيش إلى عدم توخيها الحكمة فى الانقضاض بدون تمييز على الأجانب الفرنسيين متناسية أن الشعب الفرنسى يؤمن مثلها بالمذهب الكاثوليكى.

كان المحققون فى محاكم تفتيش كستيلا يرتابون بوجه خاص فى أهالى إقليمى الباسك

وكاتالونيا. ففى عام ١٥٧٦ شكا أحد محققيها من أن أهالى سان سباستيان يكثرون من الاختلاط بالفرنسيين والزواج منهم والتحدث بلغتهم الفرنسية. والجدير بالذكر أن مكتبات برشلونة كانت تزخر بالكتب المطبوعة فى فرنسا. ولا غرو فقد كان عُشر سكان برشلونة وثلث سكان بيربجنان فى كاتالونيا من الفرنسيين. وهناك سؤال بالغ الخطورة والحيوية: لماذا شملت حركة الإصلاح الدينى المرتبطة بظهور مارتن لوثر ونشأة البروتستانتية العديد من أرجاء أوروبا فى حين ظلت إسپانيا بمنأى عنها؟ بعض الدارسين يرجع هذا إلى سياسة القمع الوحشى التى اتبعتها محاكم التفتيش ضد الهرطقة، ولكن البعض الآخر يرى أن هذه الإجابة غير وافية أو كافية، بدليل أن هولندا تعرضت لقمع واضطهاد دينى مروع دون أن يحول هذا من انتشار حركة الإصلاح الدينى والپروتستانتى فيها، فضلًا عن أن قبضة محاكم التفتيش الإسپانية لم تمنع كثيرًا من الإسپان فى عقدى الخمسينيات والستينيات من القرن السادس عشر من السفر إلى البلاد الأجنبية، كما أنها لم تمنع كثيرًا من الأجانب من السفر إلى إسپانيا، ويعزو بعض المؤرخين كثرة اختلاط الإسپان بالأجانب وكثرة اختلاط الأجانب وخاصة الفرنسيين بالإسپان إلى حدود جبال الپيرنيز المفتوحة بين إسپانيا وفرنسا وصعوبة غلقها أو التحكم فيها. وقد تنبه إلى هذا الخطر فرانسيه دى آلافا سفير إسپانيا لدى فرنسا فى عقد الستينيات من القرن السادس عشر، فقد ذكر فى التقارير التى رفعها إلى إسپانيا فى عامى ١٥٦٤ و ١٥٦٥ ذكر فيها أنه شاهد تجارًا إسپان يأتون من سرقسطة ومدينة ديل كاميو وألاكالا إلى مدينتى ليون وتولوز لشراء كتب القانون والفلسفة لبيعها فى إسپانيا، علمًا بأن قوانين مملكة كستيلا كانت تحظر استيراد الكتب الأجنبية. وأكد السفير أن كثيرًا من الكتب الفرنسية التى تعالج المسائل الدينية انتقلت من تولوز بفرنسا إلى إسپانيا عن طريق إقليم الباسك، ومعنى هذا أن الكتابات التى تتضمن الهرطقة اللوثرية، وتدعو إلى الإصلاح الدينى عرفت طريقها إلى إسپانيا، ومع ذلك فقد ظلت إسپانيا تتمتع بمناعة غريبة ضد اللوثرية وحركة الإصلاح الدينى التى قلبت الفكر الدينى فى أوروبا رأسًا على عقب.

***

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

أولاً: كتب باللغة العربية

١ ـ برتراند راسل الإنسان، الدار القومية القاهرة، ١٩٦١.

٢ ـ برتراند راسل المفكر السياسى، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٦.

٣ ـ دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦.

٤ ـ توفيق الحكيم الذى لا نعرفه، مطبعة وهدان، ١٩٧٤.

٥ ـ اتجاهات سياسية فى المسرح قبل ثورة ١٩١٩، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩.

٦ ـ برتراند راسل، تأليف ألان وود (ترجمة)، الأندلس، بيروت ١٩٨١.

٧ ـ س. ب. سنو والثورة العلمية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١.

٨ ـ موسوعة المسرح المصرى الببليوجرافية (١٩٠٠ ـ ١٩٣٠)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٩ ـ موقف ماركس وإنجلز من الآداب العالمية، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤.

١٠ ـ شكسبير فى مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

١١ ـ جورج أورويل (حياته وأدبه)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

١٢ ـ الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها، الألف كتاب الثانى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩.

١٣ ـ وول سوينكا (ترجمة)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩.

١٤ ـ أدباء روس منشقون فى عهد جوزيف ستالين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١.

١٥ ـ الأدب الروسى والبريسترويكا، دار الهلال، القاهرة ١٩٩١.

١٦ ـ الأدب والجنس، دار أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٣.

١٧ ـ الثالوث المحرم، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤.

١٨ ـ الشذوذ والإبداع، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٥.

١٩ ـ دراسات فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى، كلية الألسن، جامعة عين شمس ١٩٩٥ .
٢٠ ـ من ستالين إلى جورباتشوف، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٩٦ .
٢١ ـ الإلحاد فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .
٢٢ ـ الهرطقة فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .
٢٣ ـ شكسبير واليهود، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٥ .
٢٤ ـ العلم والدين، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، دار الهلال ١٩٩٧ .
٢٥ ـ الرجل الذى مات، تأليف د. هـ. لورانس (ترجمة)، دار الهلال، يوليه ١٩٩٧ .
٢٦ ـ ملحدون محدثون ومعاصرون، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، ١٩٩٨ .
٢٧ ـ رباعيات الشذوذ والإبداع، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، ١٩٩٨ .
٢٨ ـ اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال ١٩٩٨ .
٢٩ ـ موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٨ .
٣٠ ـ فى مدح الكسل ومقالات أخرى، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨ .
٣١ ـ سيرة حياة برتراند راسل، تأليف ألان وود (ترجمة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨ .
٣٢ ـ اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال، نوفمبر ١٩٩٨ .
٣٣ ـ صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى، دار الهلال، مارس ١٩٩٩ .
٣٤ ـ الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد، دار الهلال، ديسمبر ٢٠٠٠ .
٣٥ ـ اليهود فى الأدب الأمريكى فى أربعة قرون، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١ .
٣٦ ـ الهولوكوست فى الأدب الأمريكى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١ .
٣٧ ـ الهولوكوست فى الأدب الفرنسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢ .
٣٨ ـ اليهود فى الأدب الروسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢ .
٣٩ ـ محاكم التفتيش، دار الهلال ٢٠٠٢ .
٤٠ ـ محاكم التفتيش فى إسبانيا، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠٢ .
٤١ ـ محاكم التفتيش فى إيطاليا، دار الهلال ٢٠٠٣ .
٤٢ ـ أبرز ضحايا محاكم التفتيش، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٤ .
٤٣ ـ محاكم التفتيش فى فرنسا (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥ .
٤٤ ـ ألبرت أينشتاين: سيرة حياته (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥ .

٤٥ ـ ترجمة إنجليزية لكتاب شكسبير فى مصر، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٣.
٤٦ ـ اليهود فى الأدب الإنجليزى من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٥.
٤٧ ـ محرقة اليهود: أوشويتز ـ بيركينو، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٦.
٤٨ ـ من أدب الانشقاق، ألكسندر سولجنتستين، دار الهلال ٢٠٠٦.
٤٩ ـ الغجر بين المجزرة والمحرقة، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦.
٥٠ ـ معسكر اعتقال داكاو، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦.
٥١ ـ معسكر اعتقال برجن ـ بلسن، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٧.
٥٢ ـ معسكر اعتقال رافنزيروك، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٧.
٥٣ ـ العرب ومحرقة اليهود، كتاب اليوم ٢٠٠٧.
٥٤ ـ معسكر اعتقال ماثاوزن (المجلس الأعلى للثقافة).
٥٥ ـ معسكر اعتقال بوخنوالد، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٨.
٥٦ ـ معسكر اعتقال صوبيبور (المجلس الأعلى للثقافة).
٥٧ ـ معسكر اعتقال تريبلينكا (المجلس الأعلى للثقافة).
٥٨ ـ هل أنت شيوعى يا مستر شابلن؟ قصور الثقافة ٢٠٠٨.
٥٩ ـ برتراند راسل أمام المحاكم الإنجليزية والأمريكية، دار الهلال ٢٠٠٩.
٦٠ ـ د. هـ. لورانس وهنرى ميلر أمام المحاكم الإنجليزية والأمريكية (المجلس الأعلى للثقافة).
٦١ ـ معسكر اعتقال دورا (المجلس الأعلى للثقافة).
٦٢ ـ ظلام فى الظهيرة تأليف أرثر كيسلر (المركز القومى للترجمة).
٦٣ ـ محاكمات فنية وأدبية وفكرية (محاضر تحقيق أمام لجان تحقيق أمريكية) جزءان صادر عن المركز القومى للترجمة ٢٠١٠.
٦٤ ـ فلاديمير نابوكوف (حياته وأدبه) صادر عن دار الهلال ٢٠١٠.
٦٥ ـ جيمس جويس أمام المحاكم الأمريكية، الأنجلو المصرية، ٢٠١١.
٦٦ ـ فيودور دستيوفسكى فى المنفى ومحن أخرى، الهلال ٢٠١٢.
٦٧ ـ رواية «الغداء العارى» أمام المحاكم الأمريكية.
٦٨ ـ الغصن الذهبى فى الميزان.

ثانيًا: مقال باللغة العربية

نقد رواية العنقاء تأليف لويس عوض، المجلة فبراير، ١٩٧٠.

ثالثًا: كتب باللغة الإنجليزية

1- Naguib Mahfouz, The Beginning and the End, Translation, The American Univ. in Cairo, 1975.
2- George Orwell as an Ambivalent Writer, National Bookshop, Cairo, 1987.
3- Animal Farm, National Bookshop, Cairo, 1987.
4- Nineteen Eighty Four, National Bookshop, Cairo, 1987.
5- Hardy's Tragic and Ironic Vision in Tess, National Bookshop, Cairo, 1978.
6- Shakespear in Egypt, Rapack, Cairo, 1980.
7- English Literary Criticism, Univ. Books, Tanta, 1985.
8- Macbeth, Anglo Egyptian Bookshop, Cairo, 1989.
9- The Mayor of Casterbridge, Anglo-Egyotian Bookshop, Cairo.
10- Sons and Lovers, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989.
11- Joseph Andrews, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989.
12- King Lear, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989.
13- Merchant of Venice, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo,1989.
14- Jane Eyre, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989.
15- A Passage to India, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989.
16- Robinson Crusoe, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989.
17- Animal Farm, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989.
18- Forth coming: Egypt in the Modern British Novel: A Colletion of Articles on Newby, Ghalie, Enright, Forster, Liddel, and Olivia Manning, published in AlAhram Weekly in the following issues, 4 July, 5 September, 10, 24 October (1991) and 23, 30, January, 1, 23 April (1992).

رابعًا: مقالات باللغة الإنجليزية

1- John Wain's «Young Visitors» Faculty of Alsun Journal, 1975.
2- «King Lear as a Religious Play» Faculty of Alsun Journal, 1975.
3- «Orwell as a Literary Critic» Faculty of Alsun Journal, 1975.
4- «The Development of Liberal Culture in Modern Egypt» a series of articles published in the Egyptian Gazette in the following issues, 23, 30 March, 6, 13, 20, 27, 28 April, 4, 11 May, 1983.